رحال في مترو الانفاق

تأليف

محمود عابدين

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : **رحال في مترو الأنفاق**

المـــــــؤلف : محمود عابدين

رقــم الإيداع : 1571/ 2019

الترقيم الدولي: **978-977-834-000-6**

الطبعة الثانية 2019

مَكْتَبَةُ جَزِيرَةِ الْوَرْد

القاهرة : ٤ ميــدان حليـــم خلـــف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى أصدقاء رحلاتي اليومية في مترو الأنفاق، المجهولين لي، ولبعضهم بعضًا، الذين وجدت في وجوههم المُتعَبة، والضاحكة، والمتأملة، قاسمًا مشتركًا يجمعنا كلنا، وحكايات متنوعة قد تتشابه، وقد تختلف، لكن كل حكاية منها كانت صفحة من دفتر الوطن، أقرؤها بنهم وحب، وأقلب الدفتر سعيا إلى المزيد.

إليهم جميعا، المجهولين، المعروفين، رفاق رحلاتي الطويلة ومادة هذا الكتاب، خالص تقديري ومودتي.

محمود عابدين

Mail: mabdeen221@gmail.com

محمود عابدين :**face**

موبايل:**010611912815**

المقدمة

لأن طبيعتي الصحفية تأبى السكينة والهدوء عما يدور في عالمي؛ بحثا عن خبر أو حدث يصلُح للنشر، ولما كنت من ركاب مترو الأنفاق الدائمين، فقد شغلتني خلال رحلاتي اليومية تلك الوجوه التي تجلس بجواري، وفي مواجهتي، وزفرات الواقفين، والثرثرات العابرة، والأحداث الصغيرة، والباعة الذين يقتحمون العربات، شغلني ذلك العالم المنسوج من الهموم والفكر والأماني، وصادفتني فيه قصص لا حصر لها، تزخر بها عربات المترو، وحينما اجتمعت لديَّ من تلك الحياة المتحركة قصص ذات طعم خاص كانت تهبط وتصعد ما بين محطة وأخرى، قررت أن أضعها في كتابي هذا.

وجدير بالقول أن المواصلات بما تجسده من أطياف المجتمع قد لفتت أنظار آخرين من قبلي، فكتبوا عنها. وكان أولهم سليمان بك نجيب، نجم السينما المصرية الذي عرفه الكثيرون في دور الباشا، والذي عمل فترة لا بأس بها من عُمرِه بالسلك الدبلوماسي، وعُيِن قُنصلاً لمصر في إسطنبول، ثم أصبح رئيسا لدار الأوبرا المصرية.

كان «نجيب» مثقفا، وكاتبا، فكتب أول كتاب عن المواصلات عرفه الأدب الصحفي المصري، بعنوان «مذكرات عربجي حنطور»، ونُشر على ست عشرة حلقة في مجلة «الكشكول»، أقدم المجلات المصرية الساخرة، وجمعها بعد ذلك

في كتاب صدر عام 1922م.

وفي كتابه قرأ «نجيب» أحوال المجتمع المصري في حينه، من خلال وجوه الركاب وأحاديثهم، بدءا من انتشار الكوكايين، مرورا بالمتحرشين بالنساء، وغير ذلك مما تناولته المذكرات من خلال شخصية «الأسطى حنفي» عربجي الحنطور، ثم ظهرت وسيلة مواصلات أخرى، هي «سوارس»؛ نسبة إلى اسم صاحبها، والذى ينتمى إلى إحدى أشهر العائلات اليهودية في ذلك الوقت، وهى عائلة «سوارس».

وظلت تلك المواصلة مُستخدمة حتى أواخر القرن 19، وأوائل القرن 20، بل استمرت تنافس الترام في شوارع القاهرة. وفي أربعينيات القرن الماضي قدم الشاعر الكبير بيرم التونسي صورة ترصد أحوال الركاب في تلك المواصلة، وذلك في قصيدة «ركاب سوارس» التي يقول فيها:

- «ركاب سوارس بعيد عنك شلق هلافيت، والعبدلله معاهم وابن حنت حنيت، أول ما نركب يدور القفش والتنكيت، وإن طالت السكة نحكي لبعضنا حواديت، القافلة سارت تلملم كل صنف وصنف، في خطوة والتانية يتشعبط علينا جلنف».. إلي آخر تلك القصيدة البديعة التي كان التونسي فيها ثاني رائد لأدب المواصلات، تشغله مثلما شغلتني في « المترو» وجوه الركاب وأحوالهم.

ولقد اختفى حنطور سليمان بك نجيب، وسوارس بيرم التونسي، وظهرت لدينا وسائل أخرى، أضخمها بلا شك «مترو الأنفاق»، الذي يقل يوميا نحو أربعة ملايين راكب، يمثلون شتى أطياف الطبقات المصرية التي ترتسم فيها قصص وحكايات تنادى قارئا أو كاتبا داخل المترو.

وقد قرأت منها ما استطعت، وآمل أن تعجبك عزيزي القارئ، وأن تأخذك حكايات «مترو الأنفاق» إلى العالم المتحرك، النابض، الذي يتجدد في كل محطة، ويفرغ حكاياته القديمة، ويستقبل حكايات جديدة، بلا توقف، مثل دوران الحياة.

الكفيف – المفتح

■■■

– ساعدوا أخوكم عاجز النظر.. ساعدوا الكفيف علشان خاطر الحبيب النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام).. صدقوني:

– «أنا غصب عني مدِّيت لكم إيدي.. ما هو أنا لو كنت باشوف، كنت اشتغلت أي شُغلانة.. الشغل مش عيب أبدا.. أيوه الشغل مش عيب والله.. بس للي يلاقي شغل يناسب ظروف كفيف النظر زي حالاتي».

بتلك الكلمات.. دخل أربعيني ممتلئ الجسم عربة المترو، يرتدي نظارة سوداء، يمسك بعصا ترشده عن كل خطوة يخطوها.

عدد لابأس به من ركاب خط العتبة – العباسية تعاطفوا معه، ومنحه كل منهم ما يستطيع من المال، إلا سيدة أربعينية يبدو على ملامحها وملابسها أنها «بنت بلد»؛ كما نطلق ذلك على السيدات الفضليات صاحبات المواقف التي تستحق الثناء.

بصوت مرتفع ونبرة سخرية وسخط في آن واحد، قالت السيدة للكفيف:

– أظن عيب عليك أوي لما تبقى رجل مفتح، ولديك القدرة غير العادية على العمل؛ ثم تتقمص دور الكفيف وتدعي المرض؛ مع إني شايفاك والله من يومين خارج من محطة المنيب بدون عصاك هذه؛ بأمارة ما كنت بتعد الفلوس اللي جمعتها من أساليبك الـ «.....» طول اليوم، صح يا كفيف يا مفتح ولا أنا غلطانة؟!

يتلعثم الرجل بعد أن كشفت السيدة أمره، وبسرعة البرق، وحضور ذهني متقد، ونظرات حائرة من خلف نظارته، وكلمات مبعثرة؛ يحاول الهرب من الموقف، فيقول للسيدة:

- هو حضرتك بتكلميني يا افندم، ولا واضح إن فيه سوء تفاهم؟؟

يزيد غضب السيدة ونقدها للمتمارض، وتضطر أن تفتح عليه النار بعدما تجاهل ردها، فتقول:

- يظهر إني هاستدعي شرطة المترو للقبض عليك بتهمة «..... و.....و.....».

لم يستطع الرجل أن يصمد أمام شراسة السيدة، وفي أول محطة، قفز من العربة بانسيابية تامة كلاعب جمباز، تاركا عصاه؛ حتى لا يتم القبض عليه!!

رد فعل الركاب جاء بمستوى الموقف، فمنهم من ظل يضحك ويشكر السيدة على جرأتها وكشفها لأساليب مثل هذه النوعية من الناس، ومنهم من أطلق النكات «البايخة»، وقلة أخرى وجهوا نقدهم للسيدة على فضحها وكشفها ستر الكفيف حتى لو كان بصيرا.

لحظتها اضطرت السيدة أن تستدعي حديثا نسبته للرسول (صلى الله عليه وسلم) ردا على منتقديها، فقالت:

- مع احترامي وتقديري لرأيكم جميعا، فأنا مضطرة أن أذكركم بالحديث النبوي الشريف الذي يقول: «لا تتمارضوا، فتمرضوا، فتموتوا».. انتهى.

المتُطفِل

«إنت ولد قليل الذوق صحيح.. إيه الانحطاط ده؟!.. أنا عُمرى في حياتي ما شُفت كده أبدا، ده إنت من دور أولادي. عيب كده».

بسبب هذه الكلمات القليلة.. نشبت «خناقة» مُعتبرة في محطة مترو السيدة زينب بين سيدة خمسينية (قمة في الوقار والرقي والاحتشام) وعشريني «متطفل» من عُمر أولادها كما قالت السيدة الفاضلة.

تَدخَّل عدد من الركاب لمعرفة تفاصيل ما حدث، فاضطرت السيدة بكل أدب واحترام أن تكشف عما حدث:

– بعد أن جلس هذا الشاب بجواري، وسمع مكالمتي مع زوجي.. فوجئت به يسألني بطريقة مريبة، إن كان بإمكانه مساعدتي في أي أمر أطلبه منه!

– نظرت إليه، ولم أصدق نفسي!!.. وجدته في عمر أولادي، في البداية تجاهلت ما بدر منه، وكأني لم أسمع شيئا مما قاله، لكنه أصر على مضايقتي عندما أعاد قلة أدبه، وسألني نفس السؤال!!

بعد انتهاء السيدة من كلامها، ما هي إلا للحظات معدودة، حتى سدد بعض الركاب لهذا الشاب عددًا من الصفعات على وجهه حتى أغمِيَ عليه.. الأمر الذي

جعل السيدة تُخرج زجاجة عطر من حقيبتها، وتقربها من أنف الشاب لمدة تزيد على العشر دقائق، حتى استعاد وعيه، ثم طلبت من الركاب الصفح عنه.

نظر الشاب حوله بعد أن استعاد وعيه، ثم قرأ في وجوه ونظرات الركاب نوعًا من الغضب والتنمر به.

بكى الشاب بكاء شديدا بعدما اعتذر للسيدة خوفا ورعبا من أن ينال المزيد من الضرب، ونزل في أول محطة يقف فيها المترو، وهو يمسح في دموعه ويتمتم على موبايله ومحفظته؛ خشية أن يكون قد فقد أيًّا منهما.

الطريف في الأمر أن فتاة في مثل عمره كانت ضمن الركاب الذين شهدوا الواقعة، قالت لهذا الشاب لحظة مغادرته المترو:

- اسمع يا طارق، اللي عملته النهارده ده لازم يوصل لماما وبابا.

وهنا تأكدت السيدة المتُحرش بها أن تلك الفتاة تعرف الشاب، فسألتها:

- حبيبتي، هل تعرفين هذا المتطفل؟ وهل هو طبيعي، أم يعاني خللا نفسيا؟!

أجابت الفتاة بنوع من التوتر والاستنكار وغضب الدنيا يتملك وجهها:

- لا يا طنط أبدا، وما يشرفنيش إني أعرف الأشكال دي!!.. انتهى.

طفلة المناديل

– والله أنا بجري على أمي وأخويا الصغير بعد وفاة أبويا الله يرحمه، بس طالبة منكم مساعدة بسيطة.

– اشتروا مني علبة مناديل تنقذوا بيها عيلة صغيرة من التشريد. أنا مش شحاتة والله العظيم. أنا مجتهدة وبناكل لقمتنا بالحلال زي ما انتم شايفين كده.

تلك الكلمات رددتها طفلة لا يتعدى عمرها العشرة أعوام، صعدت من محطة حلوان باتجاه المرج، تبدو من وجهها ويديها، اللتين تحمل بإحداها شنطة «متسخة»صغيرة من القماش، والثانية تحمل بها ثلاث علب مناديل، وملابسها الرثة، أنها ربما باتت ليلتها في المحطة، أو داخل سيارة قديمة هنا أو هناك.

أثناء ترديد الفتاة لكلماتها، ناداها أربعيني أنيق يرتدي بدلة «كحلي» سادة، ويخفي عينيه بنظارة سوداء، فقال لها:

– تعالي يا بنتي، أنا هاشتري منك كل المناديل اللي معاك، لكن.....

تقاطعه الفتاة:

– الله يسترك يا بيه. صحيح هتشترى كل المناديل مني؟!

نهض الرجل واقفا بعد أن أزاح نظارته السوداء من على عينيه؛ ليكشف عن

كامل ملامحه، ثم ابتسم للطفلة ابتسامة تحمل كل معاني الطيبة والأبوة، بل وتنم عن معرفته الجيدة بها، فيقول:

- نعم يا ست البنات، لكن بشرط واحد يا «زينة».

نظرت الفتاة للرجل، فجأة تراجعت خطوتين للخلف، وبدا للركاب أنها تحاول الفرار من العربة بعد تأكدها أنها أمام مسئول الملجأ الذي هربت منه؛ لكنها تفشل.

المسئول يلاحقها، ويمسك بها، ويطمئنها:

- حبيبتي، ماتخافيش، بس عاوز أعرف سبب هروبك من الملجأ. ده أنا بقالي شهرين رايح جاي من الملجأ للنيابة؛ بسبب هروبك، ويا ريت تعرَّفيني مين اللي مشغَّلك شحاتة!

الركاب يتعاطفون مع الفتاة، ويحاولون تخليصها من يد مسئول الملجأ؛ حتى تذهب إلى حال سبيلها، وكادوا ينجحون بالفعل، لكن دهاء الرجل كان سباقا بعدما كشف لهم حقيقة هروب الطفلة من الملجأ الذي يتولى هو مسئوليته، فاعتذروا له، وحاولوا نصح الفتاة بالعودة إلى ملجئها إكراما لطفولتها من «البهدلة»، وإشفاقا على وضع المسئول أمام النيابة.

نوبة بكاء هستيرية تنتاب الطفلة، وأمام إصرار المسئول وعدد لا بأس به من الركاب على عودتها للملجأ، كشفت الطفلة عن عصابة من المجرمين، تخصصوا في خطف أطفال الملاجئ؛ لاستغلالهم في أعمال غير شرعية، ومنها التسول.

في محطة المعادي نزل المسئول وفي يده الفتاة باتجاه أمن المحطة لتحرير محضر بالواقعة، وما هي إلا لحظات حتى تواجدت سيدة خمسينية في ذات المكان، تشبه في ملامحها وإجرامها وجرأتها إلى حد بعيد، الفنانة القديرة نجمة أبراهيم في فيلم «ريا وسكينة».

حاولت هذه السيدة أن تختلق مشكلة مع مسئول الملجأ؛ لانتشال الفتاة من يده، وظلت تصرخ، وتستنجد بالركاب؛ ظنا بأنها ستنجح في خطتها، فقالت:

- بنتي، خطف بنتي، عاوزة بنتي، هاتوا لي بنتي من المجرم ده.

يتعاطف بعض الركاب في البداية مع «المُجرمة» التي أتقنت دورها التمثيلي أمامهم، وكادت تنجح في ذلك بالفعل، وتمسك بيد الطفلة لتهرب بها لولا حضور أمين شرطة وضابط شرطة برتبة ملازم أول وتدخلهما لاحتواء الموقف واصطحاب المسئول والطفلة إلى غرفة الأمن؛ لتحرير المحضر بالواقعة، فيما اختفت «المجرمة» بين الركاب، وهربت قبل أن يتم القبض عليها.

في غرفة الأمن تعترف الطفلة في محضر رسمي بأسماء وجرائم العصابة التي خطفتها من الملجأ.

ينتهي الموقف بتسليم الطفلة لمسئول الملجأ، بعد أن سردت قصة خطفها؛ لتبدأ دورة جديدة لرجال الأمن في التحري عن خاطفي الأطفال وإلقاء الضبط عليهم.. انتهى.

المُتحرِّش

لو سمحت ابعد عن ماما شوية. إنت لازق فينا ليه كده؟!.. أووف.. إيه القرف ده؟!

بعد ارتفاع صوتها بتلك الكلمات، التفت عدد من ركاب المترو لمعرفة مصدر الصوت، فإذ بها فتاة عشرينية رائعة الجمال، ترتدي زيًا رياضيًا، ويشع وجهها حيوية ونضارة، كانت تقف بجوار والدتها في عربة الرجال، تحاول تلقين شاب ثلاثيني درسًا في مكارم الأخلاق.

ملامح هذا الشاب ووجهه ونظراته وصوته وقلة أدبه وبجاحته تؤكد جميعها أنه تعود على «مضايقة» الجنس الناعم؛ طمعًا في لمس هذه والاحتكاك بتلك؛ لإشباع رغباته الدنيئة!!

وقبل أن يسأل عدد من الركاب الفتاة عما فعله هذا «السافل» – بحسب وصف أحدهم – بوالدتها.. حاول الشاب أن يكسب الموقف، ويرفع صوته بكلمات «بيئة قوي» تشبه إلى حد بعيد أفعاله المشينة، فقال:

– «لما انتي خايفة على أمك كده، ليه يا روح أمك ما ركبتوش عربية النسوان»؟!

وقبل أن يُكمل الشاب وصلة ردحه وبجاحته، على أمل أنه سيفلت بـ«عملته

السودا»، إذا بالفتاة ترفع يدها اليسرى في الهواء، وتصفعه صفعة تاريخية على وجهه، فتطيح به أرض العربة!!

وقبل أن ينهض الشاب ليثأر لنفسه من الفتاة، انهال عليه ضربًا أكثر من عشرة ركاب، بـ«الشلاليت» و«الأيدي» وحتى «البصق» على وجهه.

أمام هذا الموقف المحترم من الركاب تجاه السيدة وابنتها، لم يجد الشاب مفرًّا من الاستسلام والتظاهر بالبراءة والقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يلمس السيدة، وظل يبكي محاولاً النزول في محطة رمسيس، لكن....

الفتاة كان لها رأي آخر، وذلك بعدما أقسمت على والدتها أن تكشف للركاب ما فعله الـ«السافل» بها.

حاولت الأم تجنب الحديث منعا للـ«.....»، وإنهاء الموقف لـ«حد كده»، لكن أمام اصرار الفتاة وعدد من الركاب، اضطرت الأم أن تكشف:

- هذا «السافل» وضع يده على منطقة حساسة بجسمي أكثر من مرة، وفي كل مرة أنظر إليه، وأبعده عني؛ حتى لا تلاحظ ابنتي ما يفعله، فتشتبك معه، فيعتذر ويؤكد أنه لم يقصد، وفى آخر مرة رأته ابنتي، فحدث ما حدث!!

بعد أن انتهت الأم من حديثها، وإذ بابنتها تصفعه مرة ثانية بذات اليد، لكن أشد من الصفعة الأولي، فسال الدم من فم وأنف الشاب، ثم أقسمت الفتاة أن تحرر ضده محضرًا عند رجال أمن محطة التحرير.

بعد حديث الأم عن حقيقة «السافل»؛ تعاطف معها وابنتها عدد كبير من الركاب، وأمسكوا بالشاب، وسلموه لشرطة محطة التحرير، وسط بكائه وصراخه الهستيري؛ لاتخاذ الإجراءات اللازمة.. انتهى.

المُتسوّلة

بصوت حزين ينمُّ عن حالة اليأس والكرب والفقر المُدقع، سألت خمسينية ركاب المترو منحها بعض المال للإنفاق على بناتها الثلاث، ودفع إيجار سكنها المتأخر عليها مدة ثلاثة أشهر، وكذلك علاج زوجها المحجوز في مستشفى «.....».

لم تكتفِ السيدة بتلك الكلمات، بل زادت عليها:

– يا جماعة، اللي مش مصدَّقني، ياخد يقرا الروشتات دي؛ علشان يعرف إني ما باكدبش، وان كنت باكذب عليكم ما اوعى أروح لبيتي وبناتي و«.....».

أمام كلماتها المؤلمة، وشرحها لحالتها «المهبِّبة»، منحها أغلب الركاب بعض النقود، كلٌّ حسب ما تيسر له.

أثناء مرور السيدة على الركاب، فجأة اتسعت عيناها، وتسمرت قدماها، وعُقِد لسانهان وكادت تلطم خديها بيديها، بعد أن سقطت منها وُرَيْقاتُها على الأرض، ولم تستطع فتح فمها بكلمة واحدة بعد ذلك.

أثارني جدًّا هذا الموقف، وظللت أتابع ما ستؤول إليه الأمور هذه بعد تلك الحالة.

نظرت مرة واثنتين، ثم نظرت مرة ثالثة بتركيز أكثر. تفحصت وجه السيدة، وإذا بها تنظر لإحدى الراكبات، كمن رأت شيطانًا رجيمًا!!.. وفي لمح البصر؛ أدارت وجهها باتجاه باب العربة؛ حتى تنزل في أول محطة يقف فيها المترو، لكن فشلت

محاولتها فشلاً ذريعًا، بعد أن أمسكت بها تلك الراكبة، التي اتضح فيما بعد، أنها ضابطة شرطة بمترو الأنفاق.

سألتها الضابطة بنوع من «القرف»:

- برضه انتي يا «.....» ما تُبْتيش؟!

بكت السيدة أمام الركاب، وحاولت أن تفلت من يد الضابطة، لكن دون فائدة.. وسألتها الضابطة مرة أخرى:

- كم محضر تسوُّل عملناهولك حتى الآن يا «.....».

السيدة تجيب بعد فشل توسُّلها ورجائها:

- كتير. بس والله غصب عني يا افندم. معلهش الله يخليهوملك و.....

ولأن الركاب كانوا في حالة تعاطف مع المتسولة، وفي حالة نقم وغضب من الضابطة؛ اضطرت الضابطة أن تشرح للركاب قصة المُتسَوِّلة، فقالت:

- يا جماعة، هذه السيدة «كذابة» في كل كلمة قالتها، فلا زوجها مريض، ولا عندها بنات و..... وباختصار شديد، تعودت على التسوُّل، تلبية لمزاجها، بعدما هربت من أهلها، وأدمنت المخدرات مع أهل السوء.

وكعادتنا دائمًا وأبدًا، حتى بعد كشف الحقائق أمامنا، انقسم الركاب إلى فريقين، الفريق الأول تعاطف مع المتسولة، وظل يرجو الضابطة أن تتركها وشأنها.

والفريق الثاني طالب الضابطة بالقبض عليها، وإعادتها إلى أهلها، حتى لو تم ذلك بالقوة، فامتثلت الضابطة لتطبيق القانون.. انتهى.

المُتصابيَة

خلال الظروف السوداء التي مرت بها مصر في الأيام الأولى من ثورة 25 يناير 2011.. استقللتُ المترو من محطةِ شبرا قاصدًا محطة الدقي – مقر عملي في جريدة الدستور آنذاك – لفت انتباهي صوتها المرتفع ولهجتها الخشنة في أثناء حديثها بالموبايل.

خمسينية متصابية، ممتلئة الجسد، مقبولة الملامح، ترتدي عباءة سمراء بها بعض الفتحات الصناعية؛ لإظهار جزء من مفاتنها – غير الفاتنة – عمدًا. كانت تجلس على المقعد المقابل للمقعد الذي أجلس عليه.

أنهت السيدة مكالمتها بسرعة، كانت تتحدث مع «سي ناصر» زوجها – حسبما فهمت من المكالمة – وسرعان ما سمعت صوتًا من هاتفها لأغنية تخاطب الجسد لمطرب ومطربة من «بتوع» بير السلم.. وكان واضحًا من صوت الهاتف الصاخب المشوش أنه صيني الصنع.

نظرت إلى السيدة كالمستجير؛ آملاً أن تغلق هاتفها، أو تخفض صوت النغمة قليلاً، وحبذا لو صنعت معروفًا في الركاب، وأنهت هذه الأغنية التي أصابتني – كبقية الركاب – بنوع من الاستفزاز، لكن أمام سعادتها بتلك الكلمات الهابطة، لم تُبالِ بضجر من حولها. فجأة رن هاتفها، فتعطلت الأغنية؛ لترد على المتصل بلهفة

وحنين ممزوجين بدمعة حزن وألم وأسى.. سألت السيدة المتصل، وعلى ما يبدو أنه ابنها:

– إنت فين يا حبيبي؟ أنت فين يا كارم؟!.. ده أنا وبابا ما بطلناش سؤال عليك عند كل أصحابك ومعارفنا، وكمان ما سبناش قسم شرطة أو مستشفى ما سألناش عنك فيهم.

وتكرر السؤال:

– إنت كويس؟!.. والنبي كويس؟!.. طيب عاوزة أشوفك يا عمرى!

فجأة توقفت السيدة عن الكلام برهة؛ لتستمع إلى المتصل ودموعها تنهمر من مقلتيها، ثم سألته مجددًا:

– يعنى انت دلوقتي في ميدان التحرير مع المتظاهرين أصحابك يا حبيبي؟!.. طيب أنا دلوقتي راكبة المترو وقريبة منك قوي في محطة محمد نجيب. ممكن اجي لك حبيبي أشوفك بس واطمئن عليك. أصلك واحشني قوي قوي والله يا نور عيني.

واصلت السيدة حوارها في الموبايل ودموعها تسبق كلماتها، فتنصح محدثها:

– طيب خلّى بالك يا حبيبي من نفسك.. أصل أنا النهارده «شفتهم» بيسحلوا شابة من اللي بيقولوا عليهم بتوع 6 إبريل في الشارع، وعرّوا جسمها خالص لغاية «.....». ربنا ياخدهم قادر يا كريم.

وقف المترو للحظات في محطة محمد نجيب، وصعدت منها فتاة لا يتجاوز عمرها الـ 14 ربيعا، تحمل شنطة مليئة بالعطور والمكياج، ويا سبحان الله! فشلت في تسويق بضاعتها لكل الركاب، ما عدا السيدة البدينة، ولا أدري لماذا «تسمرت» أمامها؛ لتستحلفها بالله وبكل غالى عليها أن تستفتحها، فقالت لها

بصوت ذليل، وإيماءات ووجه رأس تشبه - إلى حد بعيد - حركات الهنود في أفلامهم:

- والنبي يا ستي، باين عليك طيبة وجدعة، اشترى منى أي حاجة. استفتحيني والنبي.

استأذنت السيدة محدثها ثوانٍ، لتنظر إلى الفتاة نظرة حنونة، وقالت لها:

- والنبي يا حبيبتي ما ني كاسفاك أبدًا، بكام إزازة الريحة دي؟

- بعشرة جنيه يا ستي، بس ليكي انتي، بخمسة جنيه بس.

- طيب يا قلبي، سبعة جنيه آهُمْ، خديهم وادِّيني إزازة، بس طالبة منك طلب.

- يا خبر يا ستي، اطلبي.

- تدعي لابني ربنا يرجعه لي بالسلامة.

أطلقت الفتاة العنان للسانها البريء؛ يدعو لابن الست أن يعود لأمه:

- ياا رب.. ياا رب.. يا رب رجعه لها بألف ألف سلامة، وطمنها عليه.

حدث كل ذلك على مدار 5 دقائق تقريبًا، بعدها عادت السيدة لمواصلة الحديث في هاتفها حوالى 3 دقائق أخرى، وقبل أن تنهي مكالمتها، ألصقت الهاتف بشفتيها، وظلت تقبله بلهفة كمن تخفف عن نفسها آلام الفراق للمتصل، أو تواسيه بشيء تعلم أنه يُحبِّذه.

هنا وجدت نفسي أسأل هذه السيدة:

- هو حضرتك بتدعي على مين يا حاجة؟.. ومين هُمَّ دول اللي «عروا جسد فتاة 6 إبريل»؟!

ردت السيدة بنوع من الخوف والريبة بعد أن رمقتني بنظرات حادة:

– هو أنا عارفة يا اخويا بقى، بيقولوا فيه طرف ثالث موقَّع الدنيا في بعضها، الجيش والشرطة والشعب والإخوان والسلفيين و.... والنبي ما حد عاد فاهم حاجة.

عندما ذكرت السيدة كلمتي «الطرف الثالث»، توقفت عن الحديث معها، والتزمت الصمت، مكتفيًا بالدعاء لمصر أن «يُخرجها الله سالمة – آمنة من هذه المؤامرة غير واضحة المعالم».

أعادت السيدة نظراتها الحادة نحوي، وتبعتها عدة تنهيدات، وبعد خمس دقائق تقريبًا من حالتها هذه، سألتني أسئلة تكشف عن حسن نيتها وطيبة قلبها، كعادة شعبنا المكلوم الصابر دائمًا، من ضمن هذه الأسئلة:

– إنت باين عليك مِتعلم وفاهم كل حاجة بتحصل في البلد يا اخويا، هو الرئيس مبارك فعلاً هيسيب الحكم؟!

نظرت إلى السيدة، وقلت لها:

– إن الأحداث تتوالى والضغوط الشعبية مستمرة لمطالبة مبارك بالتنحي، ولا أحد يمكنه التنبؤ بما سيحدث في السُّوَيْعات القليلة القادمة إلا ربك سبحانه وتعالى.

ثم نظرت إليها مشفقا عليها، وطمأنتها قدر استطاعتي أن مصر ستكون بألف ألف خير مهما حدث لها على يد أعداء الداخل أو الخارج، سواء رحل مبارك أو ظل في الحكم؛ لأن هناك أبطالاً مُخلصين في أجهزة الدولة المختلفة، قادرين على حمل الأمانة والدفاع عن الشعب.

تدخلت في الحديث فتاة جامعية من الواضح أنها ضمن «المرابطين» في ميدان التحرير، وقالت بصوت حزين:

– إن المعلومات التي سربها موقع «ويكيليكس» كشفت عن امتلاك مبارك مبلغًا كبيرًا من المال قد يصل إلى70 مليار دولار في بنوك الخارج، وتحديدًا في سويسرا، غير أموال ولديه وزوجته.

وما إن انتهت الفتاة من طرحها، حتى تَدخَّلَ رجل كان ينصت لحديثنا؛ من الواضح أنه متعاطف جدًا مع مبارك، وأنكر هذا الكلام جملة وتفصيلاً، فقال:

– إن مبارك لا يمكن له أو لأولاده أن يسرقوا أموال الشعب.

وقبل أن ينهي المتحدث كلامه، تَدخَّلَ شاب في العشرين من عمره، يبدو متشددًا دينيًّا. وبعد أن تَحدَّثَ، اتضح من كلامه أنه ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين أو أحد أجنحتها؛ متوقعًا أن مبارك سيتخلى عن الحكم للإخوان في أقرب وقت ممكن!!

نظرتُ إلى هذا الشاب، وأمعنتُ فيه النظر مرة ومرات، سألته:

– هل هذه توقعات، أم معلومة؟!

رد عليَّ بثقة زائدة:

– إنها معلومة مؤكدة من مصادر موثوق فيها !!

ولأني أعرف جيدًا من هو مؤسس جماعة الإخوان، وأعرف بعض خباياهم؛ نظرًا لتعاملي مع قياداتهم؛ بحكم عملي كرئيس لقسم الرأي بجريدة الدستور؛ قلت للشاب:

– إذًا فالأمريكان أعدوا العدة لضرب مصر في مقتل، وذلك بعد رحيل مبارك وتسليم حكمها لعصابة إرهابية تستخدم الدين ستارًا لتحقيق أغراضها، تماشيًا مع المخطط الصهيو – أمريكي الذي ظهرت بوادره في الشقيقة تونس.

وما إن انتهيتُ من كلامي الذى أعجب بقية الركاب بمن فيهم السيدة البدينة،

حتى فوجئت بالشاب الإخواني يُخرِج لي سهامه اللفظية غير المحترمة ضد شخصي بشكل لم أكن أتوقعه.

وقبل أن أرد عليه، وقف شاب من عمره مدافعًا عني، حتى إن الشابين تَشابَكا بالأيدي.. فيما اكتفى بقية الركاب بالمتابعة من بعيد.

فما كان مني إلا أن نهضت من مكاني واحتضنتُ الشابين، وقبَّلت رأسيهما، وأنهيت المشكلة ببعض الكلمات الطيبة.

المؤسف في الأمر حقًّا أنني وجدت نفسي قد تجاوزت محطة الدقي التي كان من المفترض أن أنزل فيها، وينبغي عليَّ أن أعود أدراجي مرةً أخرى.

فابتسمتُ، ولم أنسَ أن ألعن هذا الفضول الذي سيكلّفني المزيد من الوقت المهدر، بالإضافة إلى جنيه آخر ثمن تذكرة العودة. هذا الكلام عندما كانت الذكرة بجنيه للراكب العادي، و75 قرشًا – نصف تذكرة – للصحفيين!!.. انتهى.

ابعد إيديك ...

«لو سمحت، ابعد إيدك عني».. جملة تبدو عادية في الأماكن المغلقة، حينما تستخدمها الزوجة كنوع من الدلال مع زوجها بعد خصام، أو عندما يفيض الكيل بالزوجة من مضايقات زوجها لسبب أو لآخر، لكن عندما تستخدمها السيدة – أي سيدة – مع زوجها في المترو، فهنا يكون الأمر مختلفًا تمامًا.

انتبه الركاب لصوت ثلاثينية وزوجها الشاب، يتناوبان الاتهامات والنقد اللاذع، هي تبكي وتقول:

– أمك اللي غلطت فيا الأول. إنت ليه كل مرة تيجي عليا كده؟ هو انا مش بنت ناس وليا أهل يحموني، ولا انت جايبني من الشارع يعني و.....؟!

الزوج يذوب خجلا أمام الركاب محاولا احتواء الموقف؛ فيبدأ في تطييب خاطر زوجته:

– حبيبتي حقك على راسي. دي برضه مهما كان أمي، ما اقدرش أزعلها.

وحاول الزوج أكثر من مرة أن يُقبل رأس زوجته حتى يرضيها، وينزلا في أقرب محطة؛ كي يعودا إلى منزلهما، لكنه يفشل، بل العكس، ارتفع صوت الزوجة وبكاؤها أكثر فأكثر، وقالت لزوجها:

- خلاص بقى يا اخويا، روح لها انت وصالحها، وسيبني أنا أروح لأهلي. أنا خلاااص تعبت يا ميدو، تعبت يا حبيبي. افهم بقي، إنت ليه مش عاوز تفهم؟!

بدا الزوج في هذه الحالة مسكينًا ومغلوبًا على أمره أمام رفض الزوجة لتوسلاته، كما كان ظاهرًا من ملابسه وملابس زوجته «الكاجوال»، وعلى وجهه وصوته، أنه مثقف ومن وسط مادي مرتاح.

وخلال لحظات؛ رفع وجهه إلى السماء، طالبا العون من الله والهداية لوالدته وزوجته.

حاولت سيدة ستينية سمعت - مثلنا خلافات الزوجين - أن تتدخل في الحوار لتلطيف الجو بينهما، لكن دون فائدة، حيث نهرتها الزوجة، وأسمعتها كلمات قاسية، فاعتذرت الستينية، والتزمت الصمت.

واستمر الخلاف بين الزوجين من محطة عين شمس حتى محطة رمسيس، وقبل أن ينزلا محطة دار السلام ليعودا أدراجهما؛ كانت الزوجة قد ذرفت «كام دمعة».

فجأة رن موبايل الزوج، رد بلهفة على المتصل:

- أهلاً وسهلاً حماتي. طمنيني عليكي. إحنا كويسين الحمد لله. خدي أمل معاك آهي كلميها.

الزوجة تلتقط الهاتف من زوجها، وترد على المتصل، بعد أن تمالكت نفسها، واستبدلت في صوتها الحزن بالرضا:

- أهلاً وسهلاً يا ماما.. لا حبيبتي ما فيش حاجة. والله ما فيش حاجة حبيبتي خاااص. انتي وبابا واخواتي كويسين؟ طيب حبيبتي الحمد لله. هاكلمك بعد شوية؛ لأننا في المترو، ومش سامعاك كويس. مع السلامة مامي.

بعد هذه المكالمة، هدأت الزوجة، وبدأت تمسح دموعها، وتنظر لزوجها بود ودلال.

فهم الزوج رسالة زوجته، وعلى الفور احتضنها، وقبل يدها ورأسها، ففرح الركاب بتصالح الزوجين، ودعوا جميعًا لهما بالتوفيق، ونصحاهما بتحمل بعضهما؛ عملاً بكلام الله عز وجل ونصيحة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم).. انتهى.

الأولتراس

حوالى نصف ساعة تقريبًا من الرعب والصراخ داخل عربات مترو الأنفاق خط المرج - حلوان في محطة جمال عبد الناصر، الأصوات أبطالها مجموعة تزيد على الثلاثين شابًا من أولتراس الزمالك المُغرَّر بهم.

أحدهم ترك شعره يتدلى على كتفيه وربطه بـ«فيونكة»!! وثانٍ يرتدي بنطلون جينز (موضة) به عدد لا بأس به من الفتحات الصناعية.. وثالث يضع على وجهه رسومات غريبة – عجيبة، ورابع وخامس و.... وكأننا نعيش في مجتمع غربي، لا علاقة له بمصر وعاداتها وتقاليدها.

ردد جميعهم شعارات سخيفة، أصابت الركاب بحالة من «القرف». من ينظر إليهم ويُمعن فيهم النظر، سيتأكد أنهم لا ينتمون لهذا الوطن على الإطلاق.. شباب تائه، ضائع، يفتقد أدني مقومات الأخلاق والانتماء لمصر وشعبها العظيم.

أما عن أسلحتهم التي استخدموها لإزعاج وإرهاب الركاب، فكانت عبارة عن مجموعة من الشماريخ داخل العربات، يتبعها إصدار أصوات نشاز موحدة تُشبه إلى حد بعيد حالة الرثاء النسائي و«ولولتهن» عندما يفقدن عزيزًا عليهن.

حاول بعض الركاب من مختلف الأعمار أن يشتبكوا معهم، لكن عناصر الأولتراس لم يلتفتوا إليهم، وزادوا من سقطاتهم وبذاءاتهم واعتداءاتهم على

الركاب، ابتداءً بالسب بألفاظ جارحة.. مرورًا بالتهديد والوعيد، ختامًا بالاعتداء بالأيدي ضد كل من يعترض على سلوكهم المشين!!

في نهاية المطاف حضرت قوة أمنية تزيد على العشرين جنديًّا وأمين شرطة وضابط، يرتدون الزي المدني.. واستطاعوا تهدئة الأمور إلى حد ما، حيث تم إلقاء القبض على عدد كبير من هؤلاء الشباب.. ولاذ بالفرار عدد آخر .

عن نفسي:

- حاولت أن أحاور هؤلاء الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين 19و25 سنة تقريبًا؛ لأقول لهم إن سلوكهم هذا فيه إساءة لهم ولذويهم ولمصر.. فمنهم من قال لي:

- خليك في حالك، وبلاش «فزلكة» في الكلام.

ومنهم من قال:

- لولا انك في مقام والدي، أنا كنت عرَّفتك شغلك كويس.

ومنهم من قال لأصدقائه:

- خليكم في مهمتكم وسيبكم منه. ده راجل فاضي، وعاوز يعطِّلكم لغاية ما تيجي الشرطة.

فما كان مني إلا أن تحملت بذاءاتهم؛ حتى لا تتطور الأمور بينهم وبين الركاب، لكن لفت انتباهي ما قاله أحدهم:

- «خليكم في مهمتكم».. وبعد انتهاء هذه المهزلة، سألت نفسي:

- عن أية مهمة يتحدث هذا الفتى؟! عن اعتداءاتهم على الركاب؟!

وكررت السؤال على نفسي:

- ترى من أوكلهم بهذه المهمة؟! وماهي خطتهم أو هدفهم بعدما فعلوا ما فعلوه؟! حقًّا شيء مؤسف ومحير أن أشاهد شبابًا في عمر الزهور يُخرِّب بلده،

ويعادي دولته على هذا النحو السافر.. لا تربية – لا وطنية – لا أخلاق !!

وسط حيرتي هذه، وجدت سيدة تتخطى الستين من عمرها تقول لي:

– لا تحزن يا ابني.. أعداء البلد «زي الهمّ على القلب» دلوقتي، فالعيب – كل العيب – يا ابني على النظام الذى ترك الحبل على الغارب لقيادات هؤلاء الشباب يسلبون منهم عقولهم، ويصنعون منهم «مسخًا» يستخدمونهم متى أرادوا.

نظرت لهذه السيدة، وقلت لها:

– والله عند حضرتك ألف حق وحق يا ست الكل. لكن هذا الأمر لا بد له من علاج سريع؛ حتى ننقذ هؤلاء الصبية من أعداء البلد.

ردت عليَّ قائلة:

– يفعل الله ما يشاء.

فقلت لها:

– لكن ما يحدث من هؤلاء الشباب شيء مؤسف جدًّا، وألف حسرة علينا جميعا لو نترك مصيرهم – منذ عشر سنوات تقريبا – بيد أعداء مصر يحركونهم متى وكيفما شاؤوا.. فقبل ذلك لم نكن نسمع عن هذه الجماعات التي تسمى أولتراس، سواء أولتراس أهلاوي أو وايت نايتس «زملكاوي».

– وللأسف الشديد، مع مرور الوقت، أصبح هؤلاء مصدرًا للإزعاج، سواءً لأنفسهم أو لأهاليهم أو للدولة ولأنديتهم، بدلاً من أن يكونوا سندًا لتلك الأندية.. يضاف إلى ذلك أن معاركهم مع الداخلية كانت هي الأساس لديهم، ومع مرور الوقت اتضحت الأمور وكشف الشعب من هو العدو ومن هو الحبيب !!!.. انتهى.

زغرودة حلوة

■■■

داخل إحدى عربات المترو - تابعت كالعديد من الركاب - بعض المشاهد الدرامية الإنسانية المؤثرة جدًّا.. مشاهد تستحق التأمل والتسجيل لأهميتها.

المشهد الأول:

- سيدة ثلاثينية بدينة، تبدو من ملامحها وملابسها أنها متوسطة الحال والثقافة، ومن الفئات الكادحة، التي تستهلك نفسها في شئون منزلها، وعملها الوظيفي لمساعدة زوجها في توفير أبسط احتياجات أولادها، فاجأتها آلام الولادة في أثناء ركوبها المترو من محطة حلوان في طريقها إلى عملها بوسط القاهرة على ما يبدو وفيما تَبيَّنَ بعد ذلك من خلال حديثها مع النساء اللاتي ركبن معها.

المشهد الثاني:

- نظرًا لشدة آلام السيدة وصراخها المصحوب بكلمات الاستغاثة وطلب النجدة والمساعدة، تعالت أصوات النساء المطالبات بإيقاف المترو عن الحركة؛ لإنقاذ الحالة ونقلها إلى أقرب مستشفى للولادة، وبالفعل تَوقَّفَ السائق بعد التنسيق مع قياداته؛ تفاديًا لوقع أي كارثة تصادم قد تنتج عن ذلك.

ولأننا في مصر ولسنا في دولة أخرى؛ كان لطف الله تعالى بالسيدة وجنينها عظيما، إذ تجمعت حولها الراكبات لمساعدتها بشكل فاق كل التوقعات، حيث نجحن في إخراج الوليد من بطن أمه بطريقة بدائية للغاية، وبعيدة كل البعد عن

الاختراعات الطبية الحديثة، كـ«ضرورة التدخل الجراحي لفتح بطن الأم حفاظًا على حياتها وحياة الجنين و.....»إلخ. وذلك بعد أن وفرن لها ما تَيَسَّرَ من مستلزمات الولادة البسيطة، كالمياه وقطع القماش.

اللافت للنظر أنه في أثناء إتمام الولادة بأيدي الراكبات العاديات – العظيمات، كان قد تم استدعاء بعض الأطباء من مستشفى حلوان العام، ولكن مع حضورهم كان المولود قد خرج إلى النور.

المشهد الثالث:

– أصرَّت الراكبات اللاتي شاركن في عملية الولادة على إنزال السيدة ومولودها إلى رصيف المحطة، ومصاحبتهما إلى مستشفى حلوان؛ للاطمئنان عليهما، والتأكد من سلامتهما، وقد كان لهن ما أردن.

المشهد الرابع:

– سعادة وهمس وغمز وضحك ونكات.. كل ذلك لاحظته على وجوه الركاب الذين اصطفوا على رصيف المحطة؛ انتظارا لمترو آخر بعدما تم سحب المترو الذي شهد واقعة الولادة إلى الجراج لتنظيفه.

وكعادتنا دائمًا وأبدًا في مثل هذه المواقف «المسرات والمضرات»، لايمكن أن تمر مرور الكرام دون توظيفها بالشكل والطريقة التي تضفي البهجة على المكان ومن فيه.

فسمعت تعليقات طريفة جدًّا من الركاب، كمطالبة أحدهم تسمية المولود بـ«مترو»، بينما طالب ثانٍ بتسميته «شفيق»، وثالث – واضح أنه ينتمي لجماعة الإخوان الإرهابية – اقترح تسميته «مرسي»؛ نظرًا لظروف الاستعداد لإعادة الانتخابات الرئاسية في هذا التوقيت بين المرشحين الرئاسيين الأسبقين. أما أنا فقد اقترحت مبتسما تسميته بـ«فرج الله».. انتهى.

المُستَسْحِرة

من محطة سعد زغلول استقللتُ المترو المتجه إلى المرج.. جلست بجوار سيدة وقورة تعدَّتِ الستين عامًا بقليل. في المقعد المقابل لي جلست فتاة غير متعلمة في نهاية العقد الثاني من عمرها، حسنة النية، إلى حد أنها تفشى سر بيتها إلى من ترتاح له.

وبجوارها تجلس امرأة متعلمة، خمسينية حسنة المظهر، مُفوَّهة إلى حد بعيد، تبدو لمن يراها دون أن يسمعها أنها أجنبية؛ بسبب لون شعرها الأصفر، وعينيها الزرقاوين.

ونظرًا لضيق المكان؛ كنتُ مُجبرًا على سماع ما تقولانه، فبدأت العشرينية حديثها مع الخمسينية:

– شوفي يا ستي، بقى الحاجة أم جوزي مُصرة تنام معانا في غرفة نومنا، يعني أنا وجوزي على السرير، وهي وبنتي الصغيرة على الكنبة، على الرغم من أن شقتنا واسعة و«بِرْحَة» وفيها غرفة تانية غير غرفة نومنا، لكن تقولي إيه؟!

وتكمل العشرينية بسذاجة:

– وأنا بصراحة مش قادرة أتكلم معاها يا اختي. خايفة من غضب الراجل بتاعي، أحسن ده ابن أمه وبيخاف على زعلها موووووت.

في بداية حديثهما ظننت أنهما صديقتان، لكن بعد أن وجهت الخمسينية سؤالها للعشرينية عن عمر وطريقة زواجها، اكتشفت أن علاقتهما لا تتعدى الدقائق.

العشرينية تواصل حديثها بعد أن مصمصت شفتيها:

- إخواتي الرجالة – الله يسامحهم بقى - جوِّزوني لصاحبهم، اللي هو جوزي، وأنا كان عمري عشرين سنة، وهو كان عنده 30 سنة يا اختي، يعنى الفرق بيني وبينه 10 سنين، جاتني نيلة في حظى اللي زي الهباب، لكن اعمل إيه يعني؟ «ضل راجل يا اختي ولا ضل حيطة» زي ما بيقولوا، وعموما برضه كل شيء نصيب بقى.

تسألها الخمسينية:

- هي أمك عايشة حبيبتي؟ لا مؤاخذة في السؤال.

- بصراحة يا اختي، أمي ماتت من زمان، وما كنتش لاقية اللي ينصحني ويوعِّيني بمقالب الحريم وحركاتهم الغدارة، لكن على أي حال عاوزة اقول لك إن الحاجة أم جوزي دي متسلطة وسليطة اللسان، علشان كده الكل بيكرهها جدًّا، خصوصًا اخوات جوزها وجيرانها وقرايبها.. وبصراحة كده هم عندهم حق؛ لأن لسانها متبرِّي منها.

تصمت الفتاة المسكينة برهة لتلتقط أنفاسها، وبصوت خافت لا يسمعه إلا من يجلس على مقربة منها تقول لمحدثتها:

- لما اتجوزت اتعلقت بجوزي قوي، زي أي زوجة بتحب زوجها، لكن الحب دايمًا يا اختي محتاج لتضحيات، وأولها إني اكسب رضا حماتي.. أم جوزي رغم إن الكل كان بيحذَّرني منها.

وقبل أن تواصل المسكينة شكوتها من أم زوجها، قالت لها محدثتها المتعلمة:

- «الحماوات» دول يا اختي بعيد عنك عاوزين الحرق بالنار. ده كويس قوي انك صابرة عليها بحسب ما انت بتقولي، ومع ذلك عاوزة انصحك نصيحة لوجه الله.

- قولي يا اختي مستنية إيه الله يرضي عليك؟؟

- عاوزاك تزوريني في مكتبي بكرة الساعة 11 صباحًا أكون رُقت شوية من الشغل،

وبعدين أتصل لك بعم «عباس»، الساعي بتاعي علشان يُقعد معانا شوية، وتشرحي لـه حكايتك، وهو هيعمل لك «عمل» لحماتك يخلِّيها تحل عنك طول العمر.

الفتاة تسأل باستغراب:

- هو حضرتك بتشتغلي إيه يا ستي؟

- أنا وكيلة مدرسة الـ «.....»، وها هو كارتي حبيبتي فيه عنـواني ورقـم موبايلي، وهاستأذنك بقى؛ لأني نازلة محطة سرايا القبة.

ولأن حديث هذه المثقفة كان مستفزًّا بعض الشيء، فأبدت الستينية التي كانت تجلس بجواري اعتراضها بصوت مرتفع ووجه ممـتعض عـلى أسـلوب المثقفـة، وقالت بعد أن مصمصت شفتيها:

- صحيح «كذب المنجمون ولو صدفوا».

فما كان مني إلا أن نصحت الفتاة المسكينة بنسيان كل ما سمعته مـن محـدثتها الخمسينية عن السحر والشعوذة.. وأكدت لها أن مثل هـذه الأفكـار والصـداقات والسحر لا فائدة منهـا، بـل قـد تعجـل مـن خـراب البيـوت، وأن أفضـل عـلاج لمشكلتها هو الصبر على المكاره، ومعاملة حماتها كأنها والدتها بالضبط.

وفى أثناء حديثي مع الفتاة؛ رجوتهـا قبـل أن أنـزل محطتـي (عـين شـمس) ألا تُفشى أسرار بيتها لأحدٍ مهما كـان، فوعـدتني أن تعمـل بوصـيتي، وأنهـا ستنسـى مديرة المدرسة، ولن تذهب إليها، وستستمر في معاملتهـا الطيبـة لحماتهـا وكأنهـا والدتها وأكثر.. انتهى.

إخوانجي وناصري

عندما أشاد الرئيس الإخواني محمد مرسى بدور الزعيم الراحل جمال عبد الناصر في زيارته الأخيرة لإيران، بعد أن كشف صراحة عن موقفه وآلامه منه في ميدان التحرير وسط «أحبته» وهو يقول بنوع من التشفي والحقد:

- «الستينيات وما أدراك ما الستينيات»!

حينها وضعنا أيدينا على قلوبنا خوفا ورعبا من القادم، ومع ذلك ظننا أن الرئيس الإخواني سينسى هذه المواقف وتلك الآلام التي لم يرَها شخصيًّا أو يعِشْها؛ لأنه ببساطة شديدة كان في هذه الفترة طفلاً صغيرًا، أو إن شئنا فلنقل «كان صبيًّا».

لكن من الواضح ــ الواضح جدًّا ــ أن هذا الرجل تَشبَّعَ حتى النخاع بثقافة من ساندوه في الوصول للحكم.. وهذا ما أبداه في تكريمه للفريق سعد الدين الشاذلي ــ أحد أبطال قواتنا المسلحة العِظام ــ والرئيس الراحل محمد أنور السادات ــ بطل حرب العاشر من رمضان المُقدسة ــ وقبلهما مؤسس سلاح الصاعقة الفريق البطل جلال الهريدي، ونَسِيَ عمدًا متعمدًا تكريم الزعيم خالد الذكر جمال عبد الناصر.

ما سبق كان ملخصًا لحديثي مع زميلي محمد السيد – رئيس قسم الحوادث بجريدة الدستور آنذاك - أثناء رحلتنا من محطة الدقي إلى محطة المرج القديمة –

حيث محل إقامة كلينا، وذلك تعقيبًا على زيارة «مرسى» لإيران في هذا التوقيت، فقال لي زميلي:

– لعل الرئيس الإخواني بعدم تكريمه للزعيم جمال عبد الناصر أراحه، وأرجع له ولجماعته ثأرًا قديمًا مات وانتهى!

فقلت لزميلي:

– أعتقد أن عبد الناصر يستحق منا الكثير والكثير، مكافأة وعرفانًا على ما قدمه لبلده ولشعبه ولأمته، فقد كان وسيظل عبد الناصر نموذجًا كريمًا للحاكم الذى مثَّل جميع طوائف مصر، وإن اختلف مع فصيل بعينه كـ«الإخوان»، فهذا أمر متوقع نتيجة أسباب معروفة سلفًا.

تَدخَّلَ في الحوار ضابط جيش متقاعد يتعدى السبعين بقليل، فقال:

– لو كنت مكان «مرسى»، لهرولت وكرمت عبد الناصر؛ لأنه ببساطة أستاذ من كرمهم مرسى جميعًا، ليس في العسكرية فقط، بل في الوطنية أيضًا. وإذا أراد «مرسي» ذلك، وهذا ما نتمناه بعيدًا عن أشرار جماعته، فلن يكلفه الأمر سوى معلومات بسيطة من المخابرات العسكرية أو العامة، وبهذا سيثبت للجميع أنه فعلاً سيكون رئيسًا لكل المصريين.

قلت للضابط:

– سيدي الكريم، إن الوقت ما زال مبكرًا لأن يصبح «مرسي» رئيسًا حقيقيًّا لكل المصريين؛ لسبب بسيط جدًّا، ألا وهو أنه مجرد «فرد» إخواني تأتيه الأوامر من مكتب الإرشاد؛ لذا فإنه لا يملك من أمره أي شيء، فمن نصحه بتجاهل زعيم وقائد بحجم وقامة «ناصر».. قد أضر بشخصه وجماعته بشكل خاص، وبمصر بشكل عام.

ثم وجه زميلي محمد كلامه لي وللضابط:

- والله إن «جمال» قاد أكبر عملية تحول وطني وصناعي واجتماعي في العالم العربي، وكان له الفضل في الحفاظ على تراب هذا البلد من الضياع رغم نكسة يونيو 67، ويكفيه فخرًا أنه قاد حرب الاستنزاف وسط مؤامرة صهيو- عالمية، مهدت الطريق لنصر أكتوبر العظيم، وهذا يجعلني خائفًا على مصر، وأتمنى أن نتجاوز هذه الخلافات «علشان خاطر ربنا، وحفاظًا على هذا الشعب من التمزيق.. وعلى مصر من الضياع، خصوصًا فى ظل الظروف الراهنة».

قال الضابط لنا:

- لا يغرنَّكما صمت الشعب وصبره على بلاوي الإخوان وسرقتهم لثورتنا، وتجاهلهم لمطالبنا، وهل نسيتما كلام «مرسى» حينما قال:

- «لا يغرنَّكم حلم الحليم»، وذلك في إشارة واضحة منه بالتهديد لمواطنين بعينهم.

صمت زميلي قليلاً كأنه يستدعى موقفا ما، ثم قال:

- المفروض يفهم هذا الإخواني وجماعته أيضًا بألا يغرنَّهم حلم الشعب وصبره على ما وصلنا إليه من انفلات أمنى وارتفاع في الأسعار وزيادة في البطالة وتهديد لحدودنا ومياهنا وضياع ثورتنا وثرواتنا.

سألت الضابط:

- أتذكر نصيحة الحجاج بن يوسف الثقفي لمن يريد أن يحكم مصر؟

- نعم، لقد حذر الحجاج أي حاكم يريد حكم المصريين بقوله: احذروا غضب المصريين، فإن قاموا على رجل ما تركوه إلا وقد قطعوا رأسه.. فاتقوا غضبهم ولا تشعلوا نارًا لا يطفئها إلا خالقهم.. وانتصِروا بهم.. فهم خير أجناد

الأرض.. واتقوا فيهم ثلاثًا: نساءهم فلا تقربهم بسوء، وإلا أكلوكم كما تأكل الأسود فرائسها.. وأرضهم وإلا حاربتكم صخورهم.. ودينهم وإلا أحرقوا عليكم دنياكم، فهم «المصريون» كصخرة فى جبل كبرياء الله.. تتحطم عليها أحلام أعدائهم وأعداء الله.

فجأة صعد رجل مُلتحٍ بين الأربعين والخمسين من عمره، وظل يعظ الركاب وينصحهم بالتعاون مع الإخوان و....

وهنا تَصدَّى له شاب من عمر أولاده، وقال له:

- أنتم كاذبون، منافقون، وقد سرقتم ثورتنا بأساليبكم الـ«.....».

حاول الرجل أن يشتبك مع الشاب بالأيدي، بعد أن وجه له وصلة من السباب والاتهامات غير اللائقة.. لولا تدخل الضابط وسيطرته على الموقف.

من جانبي استكملت حواري مع زميلي والضابط المحترم، فقلت:

- ما سبق يُنسَب للحجاج. أما العبد الفقير إلى ربه فيموت في مصر عشقًا، ولا ينتمى إلا لتراب هذا الوطن، ويعلم قدره جيدًا، لذا فإنني أضيف على نصيحة «الحجاج» تحذيرًا لهؤلاء الخونة أو غيرهم:

- حذارِ ثم حذارِ من التعالي على هذا الشعب أو المكر له أو الضحك عليه أو الاستهتار والاستهانة به، وتساءلت:

- كيف نطلب من جائع أو مريض أو عاطل أو مظلوم أو فقير سُلبت أمواله أن يصبر على بلائه؟! هل نطلب من هؤلاء، وهم السواد الأعظم من المصريين، أن يصبروا مائة يوم أخرى على مصائبهم؛ حتى يتحقق لهم مشروع «النهضة» الإخوانى مثلاً، في حين ينعم الإخوان وخُدامهم وحواريوهم بما لذ وطاب من مال وأرض ومناصب ؟!

سألني الضابط:

– باعتقادك هل نطلب من المصريين نسيان هذا المشروع الذى رفعه الإخوان كبرنامج لـ «مرسى» في الانتخابات الرئاسية؟! فإذا كان الأمر كذلك، وهذا ما أكده رجلهم الأقوى خيرت الشاطر ــ نائب المرشد العام للإخوان ــ فعلى أي أساس سيصبر المواطن، وهو يرى حاضره ومستقبله مظلمًا.. مظلمًا.. مظلمًا؟!

رددتُ عليه:

– ليت هؤلاء الخونة يصارحون الشعب بحقيقة الأمور قبل أن تأتى فتنة تأكل الأخضر واليابس.. ليتهم يصارحون الشعب بحقيقة اقتصاده وثرواته وديونه وتبعيته.. ليتهم يصارحون الشعب بإمكانات حل مشاكله.. وليتهم يكشفون تلك الحقائق المُرَّة للشعب. لقد انتابتنى الحيرة وأنا أنظر إلى تلك القلادات التي يصل وزن الواحدة منها إلى 250 جراماً من الذهب الخالص، عندما يقرر شخص إخواني أن يمنحها لمن يريد، ويرضى عنه هو وجماعته دون سواه!!

وانتهى الحوار بتساؤل زميلي:

– هل يحق للرئيس – أي رئيس – أن يُبدد أموال شعبه، دون أن تحاسبه جهة هنا أو هناك؟!

وقبل أن أجيب زميلي، أو يجيب عليه الضابط، كان الحوار قد انتهى بوصولي وزميلي إلى محطة المرج القديمة.. لكن ظلت توابع حكم «الإرهابية» حتى طباعة هذا الكتاب.. انتهى.

الحِشَري

بعد أن أديت صلاة الفجر في مسجدي المفضل «جامع النصر» بقرية منية محلة دمنة، مركز المنصورة، استقللت سيارة بيجو 7 راكب من أمام منـزلي إلى القـاهرة؛ لأبدأ رحلة عملي الأسبوعية المعتادة بجريدة الدسـتور. اسـتأذنت سـائق السـيارة بالنزول في محطة الزراعة حتى أستقل المترو المتجه إلى الدقي.

على شباك تذاكر المترو فوجئت بالكاتب الصحفى الكبير سعد هجرس – رحمه الله– يحاول جاهدًا ضمن طابور طويل من الركاب أن يحصل على تذكرة.

على الفور استأذنته بأن أقوم أنـا مكانـه بهـذه المهمـة، عـلى أن ينتظـرني خـارج الطابور لبضعة دقائق؛ حفاظًا عليه في هذا العمر المتقدم من الإرهاق والتعب، وقد كان.

ولأن الكاتب الكبير «بلدياتي»، وكان مستشارًا صحفيًّا لجريدة الدستور، وأحد كتابها الكبار لفترة طويلة؛ كانت علاقتي به جيدة جدًّا.

داخل إحدى عربات المترو، وفي تمـام السادسـة والنصـف صـباحًا، جلسـت بجوار «هجرس»، وبدأنا نتحدث عن همجيـة الجماعـة الإرهابيـة بعـد اغتصـاب عناصرها حكم مصر.

حينها قال لي:

– شوف يا محمود، القاعدة القانونية المحترمة في أي دستور محترم وفي أي دولة محترمة في كل أنحاء العالم تقول «ما بُنِيَ على باطل.. فهو باطل»، ثم سألني:

– حلو الكلام؟؟

– حلو جدًّا وجميل كمان. اتفضل كمل.....

– بكل سرور، يعني الشعب الذي تعاطف منذ ما يقرب من الـ 85 عامًا مع جماعة الإخوان، قد سئمها اليوم، وهتف ضد مرشدها «يسقط يسقط.. حكم المرشد».. وده معناه بطلان حكم مكتب الإرشاد لمصر وفقدان شرعية مندوبهم الرئاسي منذ أن حنث بيمينه، وكذب على الشعب، ولم يحترم القانون والدستور أو المواطن الذى منحه صوته، سواء لعدم حبه لمنافسه أو لثقته في جماعته.

قلت له محفزًا:

– أصبتَ أستاذنا الكبير، معاك، كمل من فضلك....

وقبل أن أفتح فمي بكلمة أخرى، اشترك في الحديث معنا أستاذ جامعي بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، هكذا عرفنا بمكانته العلمية دون أن يفصح لنا عن اسمه، لا يجاوز عمره الأربعين عامًا، وردَّ على كلام «هجرس»، قائلاً:

– سلم لسانك سيدي الفاضل، مع إضافة إن كلام حضرتك قديم جدًّا، والكل فاهمه وحافظه كويس.

وأضاف:

– لأ.. من فضلك انتظر لحظة.. فيه كارثة حصلت منذ أربعة أيام.

هنا وجدت نفسي أقول للأستاذ الجامعي:

- يا ساتر يا رب! إيه هي الكارثة يا دكتور؟

أجاب:

- المحكمة الدستورية العليا قضت أمس الأول بأن مجلس الشورى «البااااطل».. «باطل»، ثلثه باطل، وكله باطل، لكن مع إيقاف التنفيذ، والحكم ده ينطبق أيضًا على مجلس نواب الجماعة، والواضح جدًّا إن زيارة أخونا «حاتم بجاتو» للدستورية العليا قبل النطق بهذا الحكم كان فيها سر «جامد» جدا؛ لأن الحكم في هذه الحالة معناه «محلك سر»، والكلام ده فسره الرئيس الإخواني حينما قال إن «الشورى» باقٍ في مهامه التشريعية لحين الانتهاء من انتخابات مجلس النواب.

هنا وجه «هجرس» سؤاله للدكتور:

- يا نهار «بمبي» !!.. يعنى المحكمة ما زالت تحت الحصار الإخواني؟!

أجاب أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية:

- أعتقد ذلك يا افندم. والدليل واضح من إعلان القياديين الإخوانيين: عصام العريان ومحمد البلتاجي منذ أيام قليلة مضت عن تعديلات قانونية ودستورية لتحجيم دور المحكمة الدستورية. إذًا المحكمة بهذا الحكم أغضبت الجميع على ما يبدو.. لا الإخوان وأحبابهم فرحون به، ولا القوى المدنية أيضًا، ومن ثم وضعت المحكمة نفسها في مأزق يصعب الخروج منه مرة أخرى، وبالتالي ضاع الشعب في متاهات وحارات وأزقة «الجماعة الإرهابية»، ونَسِيَ كل مشاكله بما فيها القضايا المصيرية، مثل تحويل مياه النيل الأزرق عن نهر النيل، وقضية محور قطاع سيناء، وقانون الصكوك، وقانون السلطة القضائية و... إلخ.

بعد هذا التوضيح قلت أنا:

- بصراحة بقى الإخوان دول «ميت فُل وعشرة»، «إخوان - إخوان يعنى مش هزار».

سألني «هجرس» مبتسمًا:

- إزاي يا محمود؟ فهمني يعني إيه ميت فـ.....

- أقصد إنهم أغبياء، غباء منقطع النظير!! مع ذلك يجب الإشادة بما صرحت به نائبة «الشورى» السيدة نادية هنري جرجس ـ عضو التيار المدني بالمجلس ـ تعليقًا على حكم البطلان عندما قالت: «إن قرار الدستورية العليا بحل المجلس لا يمنع من حقيقة واحدة، وهى أن هذا المجلس منذ نشأته وهو باطل».

يتغير لون «هجرس»، فيقول:

- بصراحة الشعب الآن ـ إلا القلة القليلة التابعة للإخوان والمستفيدين منهم ـ «قرف» من كل شيء، وفقد الأمل في يومه وغده. والمطلوب إذا كان الرئيس الإخواني فعلاً يحب هذا البلد ويحرص على مصلحة هذا الشعب - وأشك في ذلك- فعليه أن يرحل، ويترك الحكم لمن يتقي الله في أرضنا وعرضنا.

العبد لله مؤيدًا للكاتب الكبير:

- ينصر دينك. نعم نطالبه بالرحيل وإجراء انتخابات مبكرة من أجلنا جميعًا بمن فينا أهله وعشيرته وإخوانه، نطالبه بالرحيل؛ حفاظًا على ما تبقى من رباط يجمع هذا الشعب. فليرحل «مرسى»؛ حفاظًا على صورة الإسلام الذى شوهته جماعته داخليًّا وخارجيًّا.. فليرحل حتى يعم الأمن والاستقرار هذا الوطن.. فليرحل حفاظًا على عدم تقسيم مصر إلى دويلات «نوبية وبدوية وقبطية وقاهرية».. فليرحل من أجل الحفاظ على مكانة المحروسة عالميًّا وإقليميًّا وعدم إهانتها أكثر من ذلك.. فليرحل

حتى يستطيع الشعب بناء نهضته الحقيقية بعد أن ضحكتم عليهن وخدعتموه بنهضتكم المزيفة.. فليرحل حفاظًا على مدنية الدولة وتماسكها وعدم بعثرتها.

ولأن كلام الكاتب الصحفي الكبير كان منطقيًّا جدًّا؛ وافقته الرأي وذكرت ما سبق، ثم أضفت عليه:

- نعم يجب أن يرحل هذا الإخوانجي؛ من أجل نشأة جيل جديد يعشق تراب هذا البلد بعيدا عن التعصب والتحزب والتأدين.. يرحل من أجل قضاء نزيه وقضاة محترمين.. يرحل من أجل رجل دين يعمل بصحيح القرآن والسنة النبوية المطهرة.. يرحل من أجل كنيسة تحافظ على هوية وانتماء مواطنيها.. يرحل من أجل إعلام مستقل وإعلاميين شرفاء لا ينتمون لرخصة «السمع والطاعة والتقية».. واسترسلتُ وسط إعجاب هجرس وأستاذ العلوم السياسية:

- يرحل من أجل الحفاظ على شبابنا من الإلحاد بعد أن صُدِمَ في جماعته.. يرحل من أجل الحفاظ على الوعود والعهود والقضاء على لصوص البنزين والسولار وعدم تهريبهما لحماس.. يرحل حفاظًا على استمرار غلق الأنفاق التي تُهدد الأمن القومى المصرى.. يرحل من أجل بناء رجل شرطة يعمل لصالح الشعب لا لصالح عصابة.. يرحل من أجل جيش قوى يعرف حقوقه وواجباته، ويحافظ على مواطنيه وأرضه من الخونة والعملاء.. يرحل من أجل محاسبة المتاجرين بالدين لصالح جهة هنا أو هناك على غرار ما حدث في أفغانستان.

سعد جدًّا الأستاذ الجامعي من طرحي أنا و«هجرس». وقبل أن ينزل في محطة رمسيس، أبَى إلا أن يشاركنا الرأي أيضًا في ضرورة رحيل الرئيس الإخوانجي عن الحكم، فقال:

- نعم يجب أن يرحل هذا الرئيس هو وجماعته عن حكمنا؛ حتى تظل مصر «هبة النيل».. يرحل من أجل القضاء على الخنوع والإذلال والشحاتة من دول

العالم حتى نأكل.. يرحل من أجل بناء الثقة فى نفوس شباب الثورة وعدم التمثيل بهم في السجون والمعتقلات وقتلهم بدم بارد.. يرحل من أجل فتاة قوية عزيزة شريفة لا تهاب النزول إلى الميادين ضد الفساد والظلم أو المتحرشين.

وأكمل:

– يرحل من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية التي نادت بها ثورة الشباب البيضاء في 25 يناير بعيدا عن من شوهوها أو استغلوها.. يرحل من أجل دستور ينصف الشعب ويعمل لصالحه وليس لصالح فصيل بعينه.. يرحل من أجل مجلسي شعب وشورى غير مزورين، ويعملان لصالح مصر. فالرحيل مطلب الشارع المصري الذى يهتف الآن ضد «مرسى» وضد مكتب الإرشاد المتحكم بكل شيء في مصر.

بعد تلك الكلمات تركنا أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية في محطة رمسيس، بعد أن بادلني والأستاذ سعد هجرس السلام والدعاء لمصر بالنهوض من عثرتها.

حينها قال لي «هجرس»:

– هذا الرجل لديه رؤية وفكر، على الرغم من أنه «حِشَري»، لكن على أي حال والله يا محمود، لا أعرف بالضبط كيف سيجيب محمد مرسى ربَّه يوم العرض عليه، عندما يُسأل عما حدث في مصر بعد اعتلائه كرسي الحكم، خصوصًا وأن جميعنا يعلم كيف تكونت هذه الجماعة وما أهدافها وبأي الأساليب استمرت ومن هم عناصرها.

فقلت له:

– كما نعلم أيضًا أن «مرسى» شخصيًّا مُدان في جرائم ما زالت المحكمة لم تبتَّ فيها، كما نعلم مساندة الأمريكان لجماعته، وكذلك بعض الُعربان من مبدأ

«المصالح تتصالح»، وكل هذه الأمور وغيرها أصبحت جزءًا لا يتجزأ من سياسة وتربية الإخوان.

أضاف «هجرس»:

– وهذا الأمر لم يعد غريبًا علينا، لكن الغريب حقًّا بعد وصول هذه الجماعة للحكم هو ظهور خلايا إخوانية نائمة هنا وهناك؛ كنا نظنها قامات وطنية تعمل لصالح مصر التي منحتهم هذه المكانة، لكن واااااحسرتاه على العباد!!

قلت له:

– لا غرابة ولا استغراب على الإطلاق من الحكم الأخير للدستورية العليا ببطلان مجلس الشورى «البااااطل» مع إرجاء هذا الحكم بقوة المادة «230» من الدستور «البااااطل».. والذى جاء بواسطة «جمعية تأسيسية باااطلة».

قال لي الكاتب الكبير:

– ومع كل ذلك يا محمود، لا بد من التأكيد جيدًا على أن هذا الشعب يأبى أن يمتطيه أحد أيًّا كان مجددًا.. وإن غدًا لناظره قريب.

وقبل أن أغادر المترو مع «هجرس» في محطة الدقي، قلت له:

– صدقت والله، فمن كان يصدق أن المستشار حسام الغريانى أو المستشار ثروت بدوى أو د. محمد سليم العوا أو حتى المستشار حاتم بجاتو، آاااه منه «بجاتو» ده !! أو المستشار أحمد كمال أبو المجد يفضلون مصلحة «الإخوان» على مصلحة «أم الدنيا». والله شيء مؤسف ومخجل، و«يخلى الواحد ـ بجد ـ يتقيأ!!.. انتهى.

الضمير

مناقشة حامية دارت بين اثنين من الركاب داخل عربة المترو المتجه إلى المنيب من شبرا.

لم أسمع حديثهما منذ البداية، لكن لفت انتباهي ما أوضحه أحدهما (خمسيني بدين ومُلتح) صاحب صوت جهوري، تملؤه الشماتة في مصر وشعبها، عندما قال:

– أنصح كل ذي عقل يُريد لهذا البلد السير على الطريق الصحيح بالرجوع لمشاهدة ما قاله الفقيه الدستوري د. إبراهيم درويش منذ أيام على قناة «المحور»؛ لأن هذه الحلقة تحتاج منا إلى الوقوف حدادًا لفترة؛ حتى نلتقط أنفاسنا من السباق الماراثوني الذى بدأناه منذ ثورة 25 يناير وحتى هذه اللحظة.

حينها نصحه محدثه الأربعيني المثقف الواعي أن يتمهل فيما يشيعه عن كل ما يسمعه، خصوصا تلك الأخبار التي تسيء لمصر في هذه الفترة العصيبة.

لكن الملتحي لم يُعِرْه أي اهتمام، واستطرد في حديثه قائلاً:

– يعنى عندما يتحدث هذا الرجل – ونحسبه صادقًا فيما يقول – عن الفساد الذى يدب في أوصال المحروسة منذ عقود، فيجب أن نأخذ بشهادته، ونتحرى

الدقة في كل كلمة ينطقها؛ لأن د. إبراهيم درويش عرفناه أستاذًا وخبيرًا في القانون بالمقام الأول، يعني يعرف ويعي ويعني ما قاله «إن نصف الشعب المصري تحت خط الفقر».

حاولت أنا (العبد لله) التدخل في الحوار؛ حتى أضيف عليه أو إليه بعض الحقائق، لكن الخمسيني قطع على الطريق بغضب، وأضاف:

– دكتور إبراهيم أكد أيضًا أن جميع الدساتير المصرية السابقة كانت حبرًا على ورق، ولم تُفعَّل منها مادة واحدة، كما أن وزارة د. حازم الببلاوي – رئيس الوزراء – كانت محجوزة لشخصيات بعينها في أثر نجاح ثورة30 يوليو، وأن راتب أي منهم لا يقل بأي حال عن 30 ألف جنيه، وأن هؤلاء الوزراء لديهم مجموعة مستشارين من معارفهم وأقاربهم و«ألاضيشهم» يتقاضون مليارات الجنيهات من دم الشعب المطحون!!

أقحمت سيدة منتقبة نفسها في الحوار عنوة، فقالت:

– يعني النظام الحالي عاجز عن تطبيق الحد الأقصى للأجور.. ياااااه، ألهذه الدرجة أصبحنا؟!

فرد عليها الملتحي:

– والله هذا ما قاله د. إبراهيم درويش، عندما كشف أيضا بأن هذه النوعية من مصاصي دماء الشعب لا قيمة لهم ولا لخبراتهم التي «قرفونا»، وهددونا بها ليلَ نهارَ. وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد، بل انتقد الفقيه الدستوري عودة مجلس الشورى تحت مسمى «مجلس الشيوخ»، وفضح ألاعيب أصحاب النفوس الضعيفة في لجنة الخمسين، مؤكدًا أنه يعرف من الآن من هو الرئيس الذى وقع عليه الاختيار لهذا المجلس!!

وبصوت مرتفع تفوح منه المرارة والتشاؤم، قالت السيدة المنتقبة:

لذا فإن معايير اختيار الوزراء في الحكومة الانتقالية تفتقد إلى الخبرة العلمية والفنية. (مستشهدة بتصريحات بعضهم التي تؤكد انفصالهم عن الواقع المصري): وكأننا نعيش في دولة غير مصر.

وواصل الملتحي حديثه:

-إن د.إبراهيم درويش كشف في الحلقة المشار إليها أن من ضمن الوزراء الذين تم اختيارهم د. أشرف العربي - وزير التخطيط - الذى يملأ وسائل الإعلام المختلفة بالتفاؤل والآمال التي تخالف الواقع تماما!!

وواصل الملتحي حديثه:

- ما سبق ليس كل شيء كشف عنه د. درويش، بل تَطرَّقَ إلى بعض المواقف المؤسفة بينه وبين عمرو موسى - رئيس لجنة الخمسين - بخصوص كتابة الدستور، ومواقف أخرى مخجلة مع د. البلاوي في عملية اختيار الوزراء.

انتهى الموقف، قبل أن أنزل محطتي بدقائق بسيطة، وحينها أدركت أننا في مأزق حقيقي يهدد أهداف ثورتي 25 يناير و30 يونيو، وكان المطلوب تصحيح المسار بشكل فوري؛ حتى لا نُشمت الإخوان «الإرهابية» والأمريكان فينا، لكن..... انتهى.

ثورجية وأزهري

جمعتهم الصدفة البحتة داخل عربة مترو الأنفاق خط المرج – حلوان، أكثر من ثلاثين راكبًا يتغير بعضهم من محطة لأخرى، مختلفون في الأعمار والاتجاهات، كان القاسم المشترك في حوارهم هو حالة مصر المأساوية في عهد الرئيس المعزول محمد مرسي وجماعته. بدأ الحديث بينهم عندما سأل شاب ثلاثيني تظهر على وجهه علامات اليأس صديقًا له من نفس عمره، يجلس بجانبه عما إذا كانت حال البلد ترضيه.

فألقى الشاب بعدد من التُّهَم على الإخوان.. منها: تهريبهم للمواد البترولية وغيرها إلى غزة عبر الأنفاق وحرمان الشعب منها، ودعا الله عليهم، قائلا:

– الله يخرب بيوتهم واليوم اللي انتخبناهم فيه. ويا ريت تعود أيام الرئيس المخلوع حسنى مبارك بحلوها ومرها.

واسترسل:

– الإخوان خربوا بيوتنا، وأوقفوا حالنا، وأدخلونا في مشاكل حتى مع بعضنا البعض.

وقبل أن يصمت المتحدث، عاجله شاب «إخواني» بعدد من الاتهامات منها أنه

فلول، ومن أنصار جماعة «آسفين يا ريس»، ومن أرامل الفريق أحمد شفيق، الذي هرب إلى الإمارات، وظل هذا الإخواني يدافع عن «مرسي» بكلمات لم تقنع الركاب مثل أنه «أول رئيس مصري يحفظ كتاب الله ويعمل به»، وأنه «طليق اللحية، ويصلي الفرض بفرضه»، و«حاصل على درجة الدكتوراه في الهندسة» و.... و.... وتساءل الشاب الإخواني:

– هل كان يجرؤ أحدكم أن يعترض على نظام حسنى مبارك الذى أذلكم ونهب ثرواتكم طوال 30 عامًا؟!

ولأن الركاب كانوا ينظرون إليه بنوع من السخرية، ولم يُلقوا لكلامه أي اهتمام؛ اضطر هذا الإخواني أن يستكمل حديثه متسائلاً:

– لماذا إذًا لا تمنحون د. مرسي الفرصة للعمل مثل مبارك الذى عينه الرئيس الراحل أنور السادات بأوامر أمريكية؟ فـ«مرسي» رئيس منتخب، جاء إلى سدة الحكم برغبة شعبية عن طريق الصندوق.

وما إن سمع هذه الكلمات رجل خمسيني عرف نفسه أنه مُحامٍ، حتى استشاط غضبًا، وأطلق العنان للسانه، موضحًا مغالطات الشاب الإخواني، وقال متهكمًا:

– معنى كلامك أن «مرسيكم» لم يأتِ بأوامر أمريكية؟! يا أخي أنا رجل قانون، وأفهم جيدًا ألاعيب الجماعة وأساليبها في مثل هذه الأمور، وكذلك تاريخها الأسود في الانتخابات السابقة ودستورها المسلوق؛ لذا أنصحك وأنصح غيرك بمراجعة تاريخ إخوانك وعلاقتهم مع الأمريكان والإنجليز معًا، واسأل أيضًا المنشقين عن الجماعة: لماذا ابتعدوا عنها وشهروا بها؟ ويضيف المحامي:

– ليتك أيها الشاب الذي تربى وترعرع على «السمع والطاعة العمياء» تسأل قادتك عن سبب نشأة تنظيمهم السري وهدفه.. وكذلك عدد العمليات الإرهابية

التي قاموا بها ضد هذا الشعب المكلوم باسم الإسلام، والإسلام منها بريء. وإن لم تجد إجابة عن أسئلتي من إخوانك، فانظر حولك، وابحث عن ملفاتهم التي دمروا أكثرها في مقار مباحث أمن الدولة أثناء ثورة 25 يناير. وحتى لا نبتعد أرجوك أن تتابع مذبحتهم الحالية ضد القضاء، بعد أن «أخونوا» الداخلية، ويحاولون فعل الشيء نفسه مع الجيش.

وبعد أن انتهى المحامي من هجومه على الجماعة، وقبل أن يرد الشاب الإخواني بكلمة واحدة، إذ بفتاة عشرينية تنتمي لحركة «6 إبريل» كما عرَّفت نفسها أيضًا، وعلى ما يبدو أنها غرر بها شباب هذه الحركة لأسباب عديدة تم كشفها فيما بعد، تقول:

– الثورة مستمرة رغم أنف الحاقدين وأصحاب المصالح المشبوهة. الثورة مستمرة رغم أنف الإخوان المسلمين الذين سرقوها، وتآمروا عليها. الثورة مستمرة حتى نحصل على حقوق الشهداء والمصابين منذ 25 يناير وحتى الآن. الثورة مستمرة حتى تحقق أهدافها التي قامت من أجلها، وهي «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.. كرامة إنسانية».

وتردف:

– الثورة مستمرة، وستكشف مؤامرات الإخوان ضد مصر والمصريين. الثورة مستمرة وسنتصدى لأخونة الدولة ونسقط حكم المرشد إن عاجلاً أم آجلاً.

فجأة ذرفت الفتاة دموعًا غزيرة، وبح صوتها وانقطع، وهنا علا صوت الركاب عدا الشاب الإخواني مرددين:

– «الثورة مستمرة.. الثورة مستمرة.. ويسقط حكم المرشد».

فيما انتفض رجل أربعيني فجأة، ورد على الفتاة قائلاً:

- شباب 6 إبريل عملاء، إما للأمريكان أو للإخوان.

فلم تستطع أن ترد عليه الفتاة، ولا حتى أي شخص من الركاب سوى بعلامات الدهشة والتعجب التي ارتسمت على وجوههم.

وأبى سبعيني أزهري أن يفوته هذا الحوار دون أن يُدلِيَ فيه بدلوه، وبعد أن عرَّف نفسه، قال:

- عاصرت الرؤساء: محمد نجيب وجمال عبد الناصر والسادات ومبارك، وكنت متابعًا جيدًا لكل ما مر به الأزهر الشريف طَوالَ 70 عامًا، هي عمري الآن، فلم أجد أحدًا قد استهان وأهان هذه المؤسسة العريقة وشيخها مثلما حدث ويحدث الآن في زمن الإخوان المسلمين!!

وأكمل الشيخ:

- لقد «أخونوا» وزارة الأوقاف بالكامل، ويريدون أن يسيطروا على الأزهر الشريف، ويعينوا له شيخًا إخوانيًّا؛ حتى يمرروا من القوانين ما يريدون.

واختتم باكيًا:

- اللهم أنقذ مصر والمصريين من هذه المؤامرة الدنيئة.

وردد الركاب خلفه:

- اللهم آمين.

وفى خضم هذه المناقشة حامية الوطيس، ظهرت سيدة مسيحية تتجاوز الـ 60 عامًا، وتساءلت:

- هل أعجبكم الاعتداء الأخير على الكاتدرائية في العباسية؟! وهل هذه الأحداث بداية فتنة طائفية أم حرب أهلية قادمة بمباركة إخوانية - سلفية ورعاية

أمريكية – تركية – إيرانية – إسرائيلية – قطرية؟!

واستطردت السيدة:

– هل تتذكرون الأيام الـ 18 الأولى لثورة 25 يناير؟.. لقد كنا كالجسد الواحد، القوة الواحدة صاحبة الهدف الواحد، وهو خلع النظام السابق الذى جثم على صدورنا لمدة ثلاثة عقود. وقد كان لنا ما نريد، والآن أسألكم جميعًا:

– من الذى تسبب في تقسيمنا ويهدد وحدتنا؟ ثم إلى أين تأخذنا جماعة الإخوان المسلمين؟!

لحظتها توحدت إجابة الركاب على اتهام الإخوان بأنهم سبب فشل الثورة وتردِّي أوضاعنا.

وفي أثناء هذه المناقشات، تدخل في الحديث ثلاثة جنود من قواتنا المسلحة، يخدم أحدهم في منطقة رفح، فقال:

– أنا أحد الشهود على دخول وخروج الحمساوية من مصر وإليها دون حسيب أو رقيب.

وانضم إليه زميلاه في انتقاد نظام الإخوان واتهام عناصره بالفشل الذريع في إدارة البلاد والتآمر عليها، مستشهدين فيما ذهبوا إليه بما تعرضت له المحروسة منذ فوز «مرسي» بالرئاسة وحتى حينه من كوارث تهدد الوحدة الوطنية.

خلال هذا الحديث فوجئت بالشاب الإخواني يقول للركاب:

– إذا تحدث أهل الباطل، فعلى أهل الحق أن يلتزموا الصمت.

لكن الركاب لم يردوا عليه، أو يعيروه أي اهتمام، حتى انصرف كل منهم إلى حال سبيله.

كل ذلك وأنا أسجل ما يدور في «نوتة» صغيرة أحتفظ بها دائمًا في جيبي لمثل

هذه المفاجآت.

وقد خرجت من هذا الحوار الذى لم أنطق فيه بكلمة واحدة بعدة ملاحظات، كان أهمها:

- وجود حالة من اليأس والإحباط عند أغلب المصريين للأسباب التي سبق وتحدث عنها كثير من هؤلاء الركاب، وسألت نفسى عن كيفية الخروج من هذا النفق المظلم الذى وضعنا فيه الإخوان المسلمون.

- وتأكد لي ضرورة القيام بثورة ثانية؛ لتطهير البلاد من عملاء الداخل والخارج في آن واحد، ورأيت أن هذه الثورة لا بد لها من رأس مفكر مع الجسد الذي سيقوم بها.

- وذلك حتى نستطيع أن نعيد هيبة الدولة التي أوشكت على الانهيار، بعد أن نوحد صفها في ظل الانقسام الديموغرافي، قبل أن ننقسم أيضًا جغرافيًّا على غرار السودان والعراق وليبيا (لا قدر الله)!.. انتهى.

روشتة أخلاق

سيدة في العقد الثالث من عمرها – جسم ممشوق، عينان زرقاوان، بشرة بيضاء، تشبه «الألمان» إلى حد بعيد، من حيث الطلة وقوة البيان واللباقة في الحديث – بدا واضحًا من وجهها ولكنتها العربية، وزيها (إيشارب أبيض يُغطي الشعر وقليلاً من الوجه وبالطو رصاصي طويل أسفله بنطلون من نفس اللون والقماش) أنها شامية، وتحديدا من سوريا الحبيبة، لجأت لهذا الأسلوب المعيشي في ظل المؤامرة الصهيو – أمريكية التي يتعرض لها وطنها.

استقلت عربة المترو المتجه إلى الجيزة من محطة الزراعة.. ألقت السلام على الركاب، فردوا عليها بأحسن مما قالت.

وخلال دقائق معدودة من ركوبها، فوجئت بها توزع على الركاب ورقة أنيقة تشبه إلى حد بعيد تلك المنشورات الإرشادية التي توزع في الأماكن الفخمة، ومكتوب في **مقدمة الورقة**:

– يأتي زمان على أمتي يذهب فيه الخشوع، ويأتي زمان يكثر فيه موت الفجأة، ويأتي زمان تكثر فيه الزلازل، ويأتي زمان لا يسلِم المسلم إلا على من يعرف، ويأتي زمان يكثر فيه الهرج (القتل)، ويأتي زمان على ناس يتباهون بالمعصية، قيل: متى يا رسول الله؟ فقال: يحصل هذا في آخر الزمان. فإذا حدث فانتظروا قيام الساعة!

وفي وسطها:

- يحدث الآن ولا غرابة في ذلك: آباء وأمهات يهتمون بطعام ولباس الأبناء وينسون غرس القيم والأخلاق، موظفون لا يخلصون في أعمالهم بدعوى قلة الرواتب، ونسوا أن الله يبارك في الرزق الحلال، ويمحق الحرام.. شباب وشابات يقضون الساعات الطوال مشيًا ولهوًا في الأسواق، ويتعبون في أول ركعة.. شباب وشابات يسمعون الأغاني بصدر رحبن وإذا سمعوا كلام الله ضاقت صدورهم، كأنهم يصعدون في السماءن ولم يعلموا أن الحلال لا يخالط حرامًا.. نشتري ما لذ وطاب وقل وكثر، وندفع بالمئات.

- وعندما نجد صندوقا للصدقة نبحث عن العملة المعدنية لنلقيها، ونفتخر بسماع صوتها في قاع الصندوق..نقوم بإعداد المنبه خوفا من التأخر على الدوام، وننسى مقابلة الله في صلاة الفجر، ونعلم أنه بإمكاننا أن نبرمج المنبه للصلاة والدوام.. نسب بعضنا، ونتكلم في أعراض خلق الله، ونسينا «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد».

وقبل نهاية الورقة:

- نشكو من كثرة الحوادث، ونسينا «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنيين».. رجال يرون زوجاتهم وبناتهم يلبسن ما يظهر مفاتنهن، ولا يغارون، ولا تتحرك فيهم نخوة الرجال؛ بدعوى أنهم متفهمون ومتحررون ومتحضرون.. في حال وصول هذه الرسالة لك، فقد أصبحت أحد المشاركين في التذكير بسنة رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم).. كل ما هو مطلوب منك إحياء سنة واحدة على الأقل من سنن رسولنا الكريم وحفظ حديث شريف من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم).. وبهذا تكون شاركت معنا في نشر سنة رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم).. ترغب أن تكون أحد الدعاةظ أعد إرسالها؛ ليزيد العدد..

وجاءت النصيحة:

- كان الصحابة يفعلون السُّنَّة لأنها «سُـنَّة»؛ لذا لا بد لنا من اتباعها؛ لأنها سنة، وهي: أن تتابع المؤذن، وأن تقول مثلما يقول، ابتداء صلاة الليل بركعتين خفيفتين، الأكل بثلاث أصابع، لا يشربنَّ أحد منكم قائمًا، شرب الماء على ثلاث دفعات، النوم على طهارة، التزاور في الله، نفض الفراش عند النوم، معاونة الأهل في أعمال المنزل، تغيير الشيب بغير السواد، المصافحة عند اللقاء، النوم على الشق الأيمن، عيادة المريض، لا تشمت العاطس حتى يحمد الله، تنحية الأذى عن الطريق سنة، أكل التمر أو الرطب وترًا، عدم النفخ في الشراب، وغيرها من السنن.

وفي نهاية المنشور كُتب:

- انشر سُنته لتحظى بشفاعته: «من أحيا سنة من سنتي، فعلم بها الناس، كان له مثل أجر من عمل بها».

وبعد مرور دقيقتين تقريبًا بدأت السيدة في مطالبة الركاب بعودة الورقة إليها أو مبلغ جنيهين مقابل هذه الروشتة المحمدية.

ويا سبحان الله! لم يكن في هذه العربة ولا سيدة. كنا حوالى 30 رجلاً، رأيت أكثرنا يحاول استمالتها، أو لنقُلْها بصراحة، رأيت البعض يحاول مغازلتها والتعرف عليها' بعد أن تباروا في منحها ما تَيسَّرَ لهم.

لكن للحق، من الواضح أن هذه السيدة لديها خبرة جيدة في التعامل مع هذه «الأشكال» من أشباه الرجال.

فما كان منها إلا أن وزعت ابتسامات مصطنعة على كل من مد لها يد العوان دون أن ينال منها أحد، ولو بكلمة أو نظرة مما كان يصبو إليها!!

ومن سوء حظ أحد الركاب (ستيني مُتصابٍ) أنه كشف عن وجهه القبيح

عندما قال لها بـ«مياعة» وخبث:

– لو عندك استعداد أساعدك في شغل، فأنا مـا عنـديش مـانع بـدل بهـدلتك في المترو، وها هو كارتي به رقمي الموبايل والمكتب و.....

ردت السيدة بأسلوب بليغ واستهانة وتقليل من شأن السائل:

– عفوا.. هو أنا سألتك عن شغل؟!

لحظتها ضحك ركاب المترو، بعد أن رمقوا العجـوز بنظـرات سـخرية، فيمـا شكروا السيدة على ردها.. انتهى.

النبـــيل

شاءت الظروف أن أجلس في المترو بجوار ضابط سابق بقواتنا المسلحة برتبة لواء، يتعدى السبعين خريفاً بعام أو ثلاثة على أكثر احتمال.. أعزه الله.

شعره يميل للون الأصفر قليلاً مع احمرار البشرة، من ملابسه تستطيع التعرف عليه جيدًا، نظافة ووقار، ولديه ثقافة عالية، يزيد طوله على الـ 180 سم، بشوش الوجه اجتماعي إلى أقصى حد.

ما جعله يقبل على الحديث معي ويفتح لي صدره بارتياح هو أنني وجدته يقف بجوار المقاعد المخصصة لكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة، في حين يجلس على أحدها فتى صغير السن لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعًا!

كان – بحق – موقفًا سخيفًا ألا ينهض هذا الصبي من مكانه؛ ليُجلِس بطلاً من أبطال مصر يتجاوز عمر جده! حينها كنت أقف بجوار الضابط، حيث يتشبث كلانا بالحلقة البلاستيك المثبتة بماسورة ترتفع عن أرضية المترو حوالى 180 سم.

نظرت إلى الصبي وإلى شعره الطويل الذي يربطه من الخلف بـ«فيونكة» مثل الفتيات باستغراب، لكنه لم يبالِ، حينها ارتفع صوتين وقلت له:

– أظن من العيب – كل العيب – أن تجلس أنت في المكان المخصص لكبار السن، في حين تشاهد رجلاً من عُمر جدك لا يقوى على الوقوف، ثم تنظر إليه وكأنك لا تراه!!

نظر إليَّ الشاب وكأنه لم يسمع ما قلت بسبب السماعة التي أوصل طرفًا منها في أذنه، بينما الطرف الثاني في هاتفه المحمول. ثم سألني بعد أن أحس بغضب على ملامح وجهي:

– هو انت بتكلمني يا عمو؟!

قلت له:

– ومن غيرك صغير السن بين هؤلاء؛ لأطلب منه ترك مقعده لهذا الرجل المُسن؟

بكل أمانة، لم أتوقع أدب الصبي وخلقه في الرد.. حيث أومأ برأسه مُبديًا أسفه مرتين – كما قال لي – المرة الأولى أنه لم يسمع ما قلته، والثانية أنه لم ينتبه لوقوف هذا الرجل الذى يحق له الراحة على المقاعد المخصصة له ولمن هم بمثل عمره.

فما كان مني إلا أن شكرت الصبي على ذوقه وحسن اختيار كلماته.

جلس الرجل الكبير عمرًا ومقامًا.. ولحسن حظي أن السيدة التي كانت تجلس على الكرسي الملاصق للصبي نزلت محطتها.

ومن ثم جلست بجوار الضابط، وبدأ يحدثني عن نفسه وتاريخه، فعرفت أن له صولات وجولات في الحروب الثلاثة التي خاضتها مصر حديثًا، منذ أن تخرج برتبة ملازم في سلاح الصاعقة، حتى وصل إلى رتبة لواء أركان حرب.

ثم قال لي بعد أن علم بأني صحفي:

– تعرف يا ابنى، يتملكني الآن خوف شديد على الأجيال الحالية من سموم الجماعة الإرهابية، حالة من التخبط والتشتت ألاحظها على عدد كبير من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات في تفسير ما يحيط بهم من أحداث جسام. نحتاج الآن يا ولدى وليس بعد إلى تنسيق كامل يبدأ من الأزهر الشريف والكنائس، مرورًا بالأسرة والمجتمع ككل، ثم وزارتي التربية والتعليم والتعليم العالي، ختامًا بالإعلام بصفتك إعلاميًّا؛ وذلك لوضع مخطط علمي وعملي لمواجهة أعداء مصر في الداخل والخارج.

وبصوت حزين ومكلوم يضيف:

– منذ عدة أسابيع مضت وقفت لأدرس في كلية ناصر العسكرية لعدد من أبنائنا، وتطرقت في محاضرتي لحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي يقول: إذا فتح الله عليكم مصر.. فاتخذوا منها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض. هنا اعترض كلامي أحدهم، وقال لي: سيادة اللواء، أنا سمعت من أعلم علماء الأرض ما يؤكد ضعف هذا الحديث، سألته:

– ومن هو يا بنى أعلم علماء الأرض الذى سمعت منه هذا الكلام؟

فرد هذا الابن المُغرَّر به، وقال:

– إنه الشيخ أبوإسحاق الحويني.

وهنا صُعقت، وقلت له:

– مع احترامنا لشخص الشيخ وعلمه، إذا كان أبو إسحاق كما تقول، فكيف نصنف فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوي الذى استشهد بهذا الحديث في أكثر من موضوع، ووصف جيش مصر بأنهم «جنود الحق»؟ يا بنى انتبه للمؤامرات التي تحاك ضد وطنك ودينك وجيشك، فهذا الكلام إن صح وقاله رجل في علم ومكانة «الحويني»؛ فلا بد أن هناك خطأ يجب تصحيحه.

وقبل أن يُكمل اللواء، سألته:

– وماذا عن رد فعل هذا الشاب على ما قلته سيادتك؟

– ولا شيء – للأسف الشديد – سوى أنه واصل الحديث عن الشيخ بتاعه، حينها قلت له:

– يا بني إذا نظرت إلى تركيبة الجيش المصري، فستجده مختلفًا عن جيوش العالم قاطبة.. جيش مصر العظيم يتكون من الفقير والغني، المثقف وغير المثقف، المتعلم وغير المتعلم.. الصعيدي والبحراوي، الأبيض والأسود، جيش مصر لا يفرق بين أحد، الكل فيه سواء.

ويضيف:

– أي أن جيش مصر من كل أبنائها وليس من طبقة دون أخرى أو فئة دون غيرها كما شاهدنا وتابعنا ذلك في العديد من الدول، التي تهاوت لعدم التجانس بين عناصر جيوشها؛ لذا أقول لك يا بني بأن جيشنا حمى مصرن وحافظ عليها منذ أحمس الأول، مرورًا بالضابط الألباني محمد علي، وحتى ثورتي 25 يناير و30 يونيو، كما حافظ أيضًا وما زال يحافظ على أمته العربية والإسلامية.

وتابع سيادته النصيحة المُخلصة للطالب المُغرَّر به، فقال:

– نعم يا بني، إن جيش مصر يتبع شعبه فقط. جيش مصر لا يأتمر إلا بأمر شعبه فقط. جيش مصر نزل في 25 يناير بناءً على رغبة الشعب ضد قائده الأعلى، بمعنى أن قواتنا المسلحة تحمي إرادة وشرعية الشعب ولا تنحاز لمن يلفظه الشعب، وهذا ما حدث أيضًا قبل وبعد 30 يونيو 2013.

هنا انتهى كلام اللواء، وكأنه أجاب ضمنيًّا على سؤالي.

وقبل أن ينزل محطته، مد يده لي بالسلام.. وحين وقفت لأسلم عليه، وأمسك

بيده، مساعدًا حتى ينزل من عربة المترو، حمَّلني وصية بنقل هذا الكلام للقارئ؛ حتى يدرك خطورة ما يُحاك لشبابنا.

فطمأنته، وقلت له:

– على الرحب والسعة، فمن أولويات واجبي المهني أن أنقل ما قلت للقارئ؛ حتى يفهم، ويعرف جيدًا جزءًا مما يدور في عقل هؤلاء الشباب، بناءً على توجيه من رموز دينية كنا وما زلنا نتوسم فيها الخير، خصوصًا بعد الظروف التي واجهتها مصر على يد جماعة تمسحت بالدين واستغلته. والله يعلم أن الدين منها ومن جرائمها بريء براءة الذئب من دم يوسف عليه وعلى نبينا وأنبياء الله أفضل السلام.

وفعليًّا أريد أن أنقل للقارئ ما قاله هذا البطل الوطني، ثم أقترح على مسؤولينا أن يبادروا بإعداد منهج دراسي لأبنائنا عن تاريخ قواتنا المسلحة، وعن دورها في السلم والحرب؛ حتى نحصنهم ضد مرضى النفوس الضعيفة الحاقدة الذين يهاجمون ويشوهون صورة كل ما هو وطني وشريف في هذا البلد، فجميعنا ما زال يتذكر الشعارات المعادية التي رُفِعَت بيد الخونة والعملاء منذ 25 يناير وحتى وقت قريب ضد رموز عسكرية عظيمة، وضعت أرواحها على أكفها من أجل مصر.. انتهى.

اللاقانـــــون

جلست على مقعد بجوار شاب ثلاثيني ذي لحية كثيفة بعربة المترو، وقعت عيني على خبر كارثي بكل ما تحمله الكلمة من معني، في جريدة رسمية كان هذا الشاب ممسكًا بها، و بمنتهى الصدق أؤكد للقارئ أن الخبر الذي قرأته نادر حدوثه في أية دولة تطبق القانون، لكنه أصبح عاديًّا حينها في دولة اللاقانون (حكم الإرهابية)!

كان الخبر باختصار لشابين معلقين بالحبال من أقدامهما في أعمدة حديدية بموقف سيارات بقرية «محلة زياد» التابعة لمركز سمنود – غربية؛ وذلك عقابًا على خطفهما لطفلة لم يتعدَّ عمرها العشرة أعوام وشقيقها الصغير داخل «توك توك».

فما كان مني إلا أنني لعنت – بصوت مرتفع – النظام الإخواني الذي يحكمنا؛ لأن هذا النوع من الثأر يؤدي بنا إلى تطبيق «شريعة الغاب». صحيح أن الشابين يستحقان الإعدام كنوع من الردع لكل من تسول له نفسه ارتكاب مثل هذه الجرائم، لكن بشرط أن يكون القضاء هو من يحكم عليهما وليس بتلك الطريقة البشعة من جانب الأهالي!!

بالكرسي الذي أمامي؛ كانت تجلس سيدة خمسينية مثقفة للغاية، لفت انتباهها

أيضًا ما أشرت إليه، وذلك بعد أن سألتني باستفاضة عن سبب توتري وغضبي بهذه الطريقة!

شرحت لها مُلخص الواقعة، فقالت لي:

- رغم أننا نعيش في حالة من الفوضى الأخلاقية والأمنية نتيجة عبث أيادٍ خفية بمستقبل البلاد بعد ثورة 25 يناير المجيدة لإفشالها، لكن هذه الأوضاع ليست مبررًا على الإطلاق لأن نهمش دور الشرطة والقضاء، ونقتصَّ بأيدينا من اللصوص والبلطجية، لدرجة أن نعلقهم كالبهائم بعد ذبحها!!

وأضافت السيدة بحس وطني راقٍ:

- ومع ذلك في اعتقادي أنه في ظل الظروف الحالية، سيستمر هذا المسلسل، وبهذه الوحشية، كلما زاد معدل الفقر، وتفاقمت مشكلة البطالة، وتلاشى الأمل في غد أفضل، لشعب قام بثورته ضد الظلم والفساد اللذين جثما على صدره قرونًا، ثم فوجئ بأحلامه تتبدد.

بعد أن فرغت السيدة من كلامها، قُلت لها:

- الغريب في هذه الواقعة أن الأهالي قاموا بسحل الشابين قبل تعليقهما بالقرب من نقطة شرطة في القرية نفسها!!

وحتى نقف على السبب الجوهري لهذه الظاهرة، لا بد أن نرجع إلى أصل المشكلة، ونسأل أنفسنا:

- ما الذي جعل هذين الشابين يرتكبان هذا العمل الإجرامي؟ وما الذي جعل الأهالي يتناسون دور الشرطة والقضاء، ويلقون القبض على المجرمين، ويقيمون لهما المحاكمة التي أدت إلى إعدامهما بهذه الطريقة البشعة؟

عقبت السيدة على أسئلتي بالآتي:

– الإجابة عما طرحته أصبحت مكشوفة للجميع؛ فمن الواضح أن المجرمين تجاهلا دور الأمن والقضاء معًا، وقاما بفعلتهما، كما أن الأهالي تأكدوا من نفس الشيء.

وأضافت:

– فعندما يحاول النظام الحالي أن يزجَّ بالشرطة لتواجه الشعب لأهداف لم تعد خافية على أصحاب البصر والبصيرة، وعندما يدوس النظام الإخوانجي – هكذا نطقتها – على القضاء بقدميه، فإن الوضع في هذه الحالة يؤدي إلى النتيجة الحتمية التي ننفر منها الآن، وهى ألا ينتظر الشعب أي أمل في الحصول على أمنه واستقراره من هذين الجهازين، ومن ثم رأينا الأهالي يطبقون القانون بطريقتهم الخاصة. ولسنا هنا بصدد تبرير الواقعة، بل الوصول إلى حقيقة ونتيجة لما يجري الآن.

قلت لها مؤمنًا بطرحها الواعي:

– لعل ما يشهده جهاز الشرطة حاليًّا من اعتصامات وإضرابات نتيجة تردي أوضاع رجاله والزجِّ بهم في قضايا لا ناقة لهم فيها ولا جمل، قد جعل بعض الجماعات المنتمية لما يسمى بـ «الإسلام السياسي» تقبل على تكوين جماعات تسمى «اللجان الشعبية»؛ حتى تقوم بدور رجال الأمن، وهو الأمر الذي رفضته الشرطة رفضًا باتًّا، ورغم ذلك فإن هذه الجهات تصر على مطالبة النظام بتقنين أوضاع لجانها الشعبية تحت القانون الإخواني المزمع إصداره من قبل النائب العام والمسمى بقانون «الضبطية القضائية»، وهو القانون الذى يعطي للمواطن – الإخوانجي طبعا – كل الحق في إلقاء القبض على مواطنه لسبب أو لآخر، ومن ثم يدخل المجتمع في حالة من الفوضى أكثر مما هي فيه الآن.. والنتيجة تكون «حربًا أهلية» تأكل الأخضر واليابس!!

وأضفت متسائلاً:

- في قضية إعدام هذين الشابين: ما موقف رجال المباحث في محافظة الغربية؟! ثم ما موقف القضاء أيضًا في هذه الجريمة مكتملة الأركان؟! فهل ستقوم وزارة الداخلية باعتقال جميع أهالي القرية والذين قد يصل عددهم لأكثر من 40 ألف نسمة؟! وهل سيحاكم القضاء كل هذا العدد؟! أعتقد أن هذا الوضع أصعب من أن يعالج بواسطة وزارتي الداخلية والعدل، فجريمة من هذا النوع تصنف على أنها «قضية رأى عام»، ولا بد من التعامل معها بنوع من الشفافية والحزم والحكمة في آن واحد، وإلا فإن المستقبل سيحمل لنا ما هو أسوأ من هذه المشاهد في زمن الإخوان ووزير داخليتهم ونائبهم العام.

وفي أثناء حديثي مع هذه السيدة، إذا بستيني يكسو ملامحه الوقار والهيبة يتدخل في النقاش بعصبية غير معهودة، فيقول:

- عندما يطبق الأهالي العدالة بأنفسهم ويهمشون دور الداخلية والقضاء، فهذا يعني سقوط هيبة الدولة وشرعية النظام؛ لأن النظام قبل أن يكون سلطة فهو «هيبة» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، و«الهيبة» في ظل النظام الحالي سقطت عندما أقسم الرئيس الإخواني أنه سيحترم القانون، ثم فوجئنا به ينقلب عليه ويتحلل من وعوده والتزاماته تجاه من انتخبوه، ومن ثم كان هو «القدوة» في سحق هامة الدولة وهيبتها، فهل بعد ذلك نناشد المواطن احترام الدولة وقوانينها ونطالبه باللجوء للقضاء حتى يحصل على حقه؟!

وبعد أن أنهى الرجل حديثه، إذا بالشاب الملتحي الذي يجلس بجواري يهاجمنا جميعًا بطريقة «سافرة»، ومن ضمن ما وصفنا به أننا «أهل باطل»، ولا يصلح معنا حكم الصالحين (يقصد حكم مرسي وجماعته)!!

قلت له متهكمًا وناصحًا في ذات الوقت:

– اسمع أيها الشاب المُغرَّر به.. إن التاريخ لن يرحم رئيسك الإخواني ولا جماعته.. وسيذكر التاريخ دائمًا أول خطاب لرئيسك مع شعبه حينما قال: «ليس لي عليكم حقوق.. وإنما عليَّ واجبات»!!

– لذا ظن المواطن أن مرسيكم سيلبي له الحد الأدنى من الحياة الكريمة، ويوفر لقمة العيش وفرصة العمل، ويحقق له العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية التي نادى بها في ثورته «غير المجيدة».. لكن شيئًا من هذا لم يتحقق. وسيذكر التاريخ أيضًا أن عددًا من محافظات مصر في عهد مرسيكم أعلنت استقلالها، وهذا نذير شؤم على البلاد والعباد!!

– وأن القضاء أعطى نفسه إجازة مفتوحة؛ بسبب ظلم رئيسك وجماعته لرجاله.. وأن الداخلية خاصمت الشعب بسبب سياساتكم الإخوانية، وسيذكر التاريخ أن أم الدينا أصبحت «عزبة» يمتلكها رجال أعمال ووجهاء تنظيم سري متهم بانتماء عدد من مؤسسيه للماسونية العالمية، يسمى «الإخوان المسلمين»، وسيذكر التاريخ أن جماعتكم تُفرط في الحفاظ على حدود مصر وأمنها القومي وفي حق شهدائنا الذين راحوا ضحية الغدر والخيانة في سيناء وهم يؤدون واجبهم في حماية وطنهم.

بعد أن سمع الشاب الإخواني مني تلك الكلمات.. انتفض واقفًا من مقعده ليتجه ناحية باب العربة؛ استعدادًا للنزول في أول محطة يقف فيها المترو.. وخلال دقائق معدودة قبل أن ينزل، قلت له:

– اسمع يا بني، جماعتك ورئيسك على باطل، ولن ينسَى لكم الشعب دماء شبابه التي سالت منذ توليتم مسئولية حكم مصر، خصوصًا في أحداث الاتحادية ومجزرة بورسعيد الثانية والاعتداء على الفتيات والنساء في ميدان التحرير. ونصيحتي لك ولإخوانك أن تستعدوا من الآن لتحمل مسئوليتكم بشجاعة،

فاليوم عمل بلا حساب، وغدًا حساب بلا عمل، فاغتنموا ما تبقَّى لكم من الفرصة، وأصلحوا بينكم وبين شعبكم قبل أن تأتيكم ساعة الحساب.

فأشار الشاب الإخواني إلي وجهي بعد أن نزل من المترو بيده، وقال:

- موتوا بغيظكم. لن نترك حكم مصر ما كانت الحياة باقية!!.. انتهى.

مسرحيون بلا مسرح

داخل محطة مترو المعادي، وفي جو غلب عليه الطابع التراجيدي؛ بسبب ما تمر به مصرنا الحبيبة من «كرب» في ظل سيطرة الجماعة الإرهابية على مقاليد الحكم، فوجئت - كما غيري من الركاب - بعدد من الشباب يطلبون منا مشاهدة عرضهم المسرحي – الوطني لمدة 15 دقيقة فقط.

التفَّ بعض ركاب المحطة وأنا منهم بالطبع؛ بالإضافة إلى مسئولي المحطة وأمنها حول الشباب (طلبة بجامعة القاهرة) تشجيعًا لفنهم ووطنيتهم ونظامهم ورقيهم في الحديث.

وخلال ثوانٍ معدودة، تَقمَّصَ أحدهم شخصية الزعيم الخالد جمال عبد الناصر بإتقان غير عادي، فخطب يقول:

- أيها الإخوة المواطنون، أولاً يجب التأكيد على أن «الإخوان ما لهمش أمان»، ثانيًا تعلمون جيدًا أنني اعتليت هذا المنصب من أجلكم، من أجل الفقراء والمساكين، من أجل الفلاح والعامل، من أجل المطلقة والأرملة، من أجل «نهضة» مصر الزراعية والصناعية والنووية والعلمية وليست «النهضة» التي تحدَّثَ عنها «الإخوان».

ويضيف:

- يكفيني بشهادة كل المصريين أنني أنشأت السد العالي، وأمَّمْتُ قناة السويس، وجعلت التعليم بالمجان، وأنصفت الفلاح بقانون الإصلاح الزراعي، كل ذلك وغيره قمت به من أجلكم دون وصاية من أحد، كما أنني لم أنسَ قضايانا الخارجية.

وفي أثناء تقليد هذا الشاب المفوه لخطاب الزعيم الخالد، رأيت عددًا من الركاب يتذكرون هتاف الشعب عندما قالوا لناصر وقت إعلانه التنحي عن السلطة عقب نكسة 1967:

- ابقَ، فأنت حبيب الشعب.. قم للشعب فبدِّلْ يأسه.. أنت الخير وأنت النور وأنت الصبر على المقدور.

وتَقمَّصَ الشاب الثاني شخصية «السادات» بظله الخفيف، وثقته اللامحدودة في نفسه وشعبه، والبايب في يده، فقال مبتسما:

- باسم الله.. تعلمون جيدًا أنني عبرت بالبلد من عنق الزجاجة إلى انفتاح اقتصادي وعلاقات عالمية، جعلت من مصر بؤرة اهتمام دولية، وبصرف النظر عن هذه الأمور، يكفيني أنني حررت سيناء في حرب أكتوبر 1973، ثم عقدت اتفاقية السلام مع العدو الإسرائيلي.

وأردف:

- ورغم أنني أعلم جيدًا أنها ليست آخر الحروب، إلا أنني جنَّبْتُ مصر أية حروب على الأقل لمدة 50 عامًا قادمة، والشيء الوحيد الذى ندمت عليه هو اختياري للنائب محمد حسنى مبارك.

وهنا هتف الركاب له أيضًا، ورددوا أغنية فايدة كامل:

- «قوووول.. قول يا سادات.. يا اللي كلامك حكم».

ثم وقف شاب ثالث، وبدا عليه إتقان صوت وحركات الرئيس السابق (مبارك)، فخطب في الشعب منكسرًا، وقال:

- الإخوة والأخوات، تعلمون أنني صاحب الضربة الجوية الأولى في حرب العاشر من رمضان رغم أنف المشككين والمغرضين في ذلك، كما تعلمون فإنني أنجزت مشروعات عظيمة خلال فترة حكمي، منها على سبيل المثال:

- مترو الأنفاق.. أعدْتُ لكم طابا بالقانون لا الحرب. الإخوة والأخوات، صحيح أنني ظلمتكم وأفقرتكم وأمرضتكم، ثم تركت رجالي ينهبون ثرواتكم، وكنت أنتوي توريث نجلي حكم البلاد، لكنني لم أكن أنتوي أبدًا تقسيم مصر إلى شيع وفرق مثلما عليه الوضع الآن.

- الإخوة والأخوات، بعد مرور أكثر من عامين على الثورة، هل أعجبكم حكم الإخوان؟؟ لقد حذرتكم وحذرت الأمريكان منهم ومن مؤامراتهم، لكن جميعكم لم تصدقوني، والآن اشربوا نتيجة ثورتكم على شخصي وتاريخي وأسرتي ونظامي.

وما إن انتهي مُتقمِّص شخصية مبارك من كلمته، إلا وفوجئت بشابة جميلة وسط هؤلاء الزهور تغني للمطرب محمد العزبي بآلة موسيقية تشبه إلى حد بعيد آلة السمسمية البور سعيدية:

- «اخترناه اخترناه.. واحنا معاه لما شاء الله».. كما رفعت فتاة أخرى ورقة مكتوب عليها «إحنا آسفين يا ريس»!!

بعد هذه المشاهد الرائعة وتشجيع الركاب للشباب وسعادتهم اللامتناهية بهم، تَقمَّصَ شاب رابع دور مرشد الجماعة الإرهابية د. محمد بديع، وهو يخطب بكلام نصف مُبهَم، وتحمل الكلمة الواحدة التي تخرج من فمه أكثر من معنى،

فيقول:

- باسم التنظيم العالمي للإخوان المسلمين، باسم الأهل والعشيرة، «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».. الأهل والعشيرة، لقد أفشلنا ثورة 25 يناير التي راح ضحيتها أفضل شباب مصر كما تعلمون، فعلنا ذلك تقربًا إلى الله؛ للوصول إلى حكم البلاد والتحكم في رقاب وأرزاق ومصائر العباد، فعلنا ذلك من أجل التنظيم الدولي الذي ينتشر في 88 دولة، أهلي وعشيرتي، لا تصدقوا جبهة الخراب ولا تقرءوا أو تشاهدوا الإعلاميين «الكذابين»، ولا تلتفتوا إلى الخراب الذى تشهده مصر الآن.

ويكمل:

- أهلي وعشيرتي، منذ نشأة الجماعة 1928 وحتى قبل الثورة كانت السجون بيوتنا، وبلاد الغير أوطاننا، والآن حان الوقت لنجني ثمار تهميشنا وغربتنا وآلامنا، أهلي وعشيرتي، لا تصدقوا إنجازات عبد الناصر ولا انتصارات السادات، ولا طلعات مبارك الجوية أو إعادته لطابا. تذكروا فقط أن هؤلاء اعتقلونا وعذبونا وحرمونا من المناصب، وتذكروا أيضًا أننا من صنعنا ثورة 1952، وخططنا لحرب 1973، ونحن كذلك من قمنا بثورة 25 يناير.

- الأهل والعشيرة، اليوم فقط آن لنا «أخونة» ما تبقَّى من الدولة بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية (بالمناسبة، حلو كلمة الشرعية دي؟ ركزوا عليها قوي؛ لأننا سنحتاجها، وسنستعملها كثيرًا وقت اللزوم)، وبعد أن أخذنا الضوء الأخضر من أمريكا، واعترفنا بالاتفاقيات مع إسرائيل آن لنا أن نكشف عن مخططنا و...

ويختتم الشاب على لسان «بديع» متشفيًا في وطن سلبوه كرامته، ومواطن طعنوه بخنجر الغدر والخيانة في خاصرته، فيقول:

- الأهل والعشيرة، لم يبقَ لي غير أن أهنئكم بما وصلنا إليه.. وأنصحكم

بالرجوع إلى حديث المرشد الأسبق المستشار مأمون الهضيبي عندما قال في مناظرته بمعرض الكتاب عام 1992: نحن نتقرب إلى الله بأعمال التنظيم الخاص للإخوان!! فلا تلتفتوا لكل ما يحدث في مصر من مصائب، فما زال أمامنا أعمال مهمة في «88» دولة ينتشر فيها التنظيم.

بعد كلمة مرشد الجماعة، اصطف الشباب بجوار بعضهم بعضًا، وانحنوا للركاب الذين شاهدوهم احترامًا وإجلالاً، فما كان من الركاب إلا أن عبروا عن سعادتهم بالثناء والتصفيق الحار للشباب أكثر من 10 دقائق متواصلة.. انتهى.

الأطـــــرش

«لمة.. هيصة».. الكل يريد أن يفهم ما الذي يجري لشاب في حالة «هيجان» بين أيدي عدد من رجال الشرطة في محطة السادات بعد أن فقد تذكرة ركوبه المترو.

موظفو المحطة وبعض أمناء الشرطة يطالبون الشاب بإخراج بطاقة رقمه القومي؛ حتى يحرروا له محضرًا.

تَدخَّلَ بعض ضباط الشرطة لإنهاء الموقف على خير، لكن أيضا دون فائدة. صوت الشاب تصاعد بكلمات من نوع:

– «والله أنا ماشي جنب الحيط من زمان».. «والله أنا ما ليش علاقة لا بالسياسة ولا بالمخدرات».. «والله.....» .

وأمام استمرار حالة «الهيجان» التي انتابت الشاب، حاول أمين شرطة أن يلكمه في صدره حتى يتوقف، ويحرروا المحضر، وينتهي الموقف الذي يشاهده عشرات الركاب بنوع من النفور و.....

لكن دون فائدة، واختلط الأمر على رجال الأمن، وظن بعضهم أن الشاب يتحداهم أو شيئًا من هذا القبيل، فما كان من كبيرهم إلا أن أمر رجاله باقتياد الشاب إلى غرفة الأمن؛ تفاديًا لحالة الهرج والمرج الموجودة في المحطة.

داخل غرفة الأمن، سأله ضابط:

- اسمك إيه؟ ومن أي منطقة؟

لم يجب الشاب ولو بكلمة واحدة، سوى بنظرات الاستغراب و«التوهان».

كرر الضابط نفس السؤال:

يا ابني يا حبيبي، اسمك إيه ومنين؟

ينظر الشاب وكأنه في عالم آخر، ويزيد هياجه بكلمات مختلطة تنمُّ عن خوفه الشديد من عواقب الموقف.

أخيرًا فطن ضابط كبير كان يحاول إيجاد تفسير لحالة الشاب من خلال صوته وكلماته ورفضه الإفصاح عن اسمه وتسليم بطاقته لأمين الشرطة.

الضابط الكبير يأمر رجاله بالتوقف الفوري عن استجواب الشاب، وبسرعة البرق احتضنه، ومسح على رأسه!!

رجال الأمن في حالة ذهول مما يفعله كبيرهم!! يسألونه:

- خير يا افندم، حضرتك تعرفه؟!

الضابط لرجاله:

- اتركوه وشأنه. إنه أصم لا يسمع ما تقولونه له.

يعتذر رجال الأمن للشاب، ويسمحون له بالانصراف بعد أن يعتذرون أيضا له.. انتهى.

العـــــــراقي

ربما يكون القدر هو الذي ساقني في هذا اليوم إلى محطة مترو المرج، حيث كنت أنتظر - بصحبة ابنتي الصغيرة ذات الأربع سنوات لألحق ميعاد طبيبها في معهد ناصر بمحطة المظلات - على المقعد المجاور. جلس بجواري رجل عراقي، عروبي مثقف وأصيل. نظر إلى ابنتي وأخرج لها «كيس ملبس» من النوعية الفاخرة، وبإحساس شفاف ومُفعَم بالعطف قال لي:

- شفاها الله وعافاها.

شكرته على هديته ورقَّة كلماته.

وقبل أن يسترسل في حديثه، سألته إن كان عراقي الجنسية أم إيرانيًّا؟

حينها احمرَّ وجهه وكأن «ثعباناً» لدغه، وقال لي:

إيراني؟! أعوذ بالله يا أخي. أنا عراقي.

اعتذرت له، فقبِل اعتذاري، وبدأ يتحدث:

- شوف يا أخي، إن العصبية والعنصرية والقبلية والانتماء لغير الوطن مفردات قبيحة ومقيتة، باتت تنخر في عظام بلدي الحبيب، بل الوطن العربي كله بشكل مُقنن ومدروس من أعداء هذه الأمة، التي كانت في وقت من الأوقات ملء السمع والبصر.

سألته عن سبب ألمه في محاولة بائسة مني لتخفيف الحزن والهم عنه، فقال لي بصوت حزين وعينين تغرغران بالدموع:

- إن الأخبار المشؤومة التي يطالعنا بها الإعلام العربي والأجنبي عن سيطرة تنظيم «داعش» الإرهابي على أكبر مدن العراق «الموصل وتكريت» في ظل حكومة يترأسها رجل ينتمي للمفردات التي أشرت إليها لَهُوَ أمر لايبعث على الاطمئنان يا أخي الكريم.

وأكمل:

- وحتى لا نظلم الجيش العراقي الباسل صاحب التاريخ العظيم الذي يتراجع أحيانًا أمام هؤلاء الإرهابيين؛ لا بد من الرجوع إلى الأسباب الحقيقية لما آلت إليه الأمور في بلادي.

- فلعل جميعنا يتذكر دخول الأمريكان والإنجليز في مقدمة التحالف الذى وَطِئَ أرضي المباركة.. لحظتها نصبوا حاكمًا عسكريًّا بغيضًا كارهًا للعرب والمسلمين على بغداد اسمه «بول بريمر».. هذا «البريمر – الحقير» كان يعرف جيدًا كيف يهدم تاريخ العراق، ويصنع بين مواطنيها حربًا أهلية مذهبية.

هنا استوقفت الرجل، وقلت له:

- نعم أتذكر..لقد جاء «بريمر» بمساعدة إيران، وأول ما دخل العراق أمر بتسريح جيشها وحل شرطتها!! وهذه كانت الخطوة الأولى في سيناريو المؤامرة الكبرى التي تعرض لها العراق الشقيق، ومنذ هذا التاريخ بدأنا نسمع عن سرقة آثار وكنوز بلدكم الحبيب وتهريبها إلى دول بعينها، وعلى يد مافيا معروفة للجميع، ومع مرور الوقت شاعت الفتنة بين السنة والشيعة، وبدأت بينهما حرب بغيضة حصدت مئات الآلاف من الأرواح البريئة.

قال محدثي العراقي – الراقي:

– برافو عليك، أنت يقظ للأحداث جيدًا.

ثم سألني عن طبيعة عملي، فأخبرته أنني صحفي. فرح الرجل، واستطرد في الحديث قائلاً:

– بعد ذلك توالت الأحداث، وشاهد جميعنا أهلنا يعذبون في سجن «أبو غريب» على يد الأمريكان وعملائهم من المرتزقة الإيرانيين أمثال المالكي ومرتضى الصدر و.... وتابعنا جميعًا كيف حطموا أسلحة الجيش العراقي، وباعوها «خردة»؛ ليشتروا مكانها أسلحة أمريكية جديدة، واليوم نتابع الرئيس الأمريكي باراك أوباما وهو يتعجب من ضعف الجيش العراقي الذى تآمر عليه سلفه «بوش الابن» ونظامه المجرم بعدم قدرته على مواجهة تنظيم دولة العراق والشام الإسلامية «داعش»!

قلت له والألم يعتصرني:

– يا أخي هون على نفسك، إن الحقيقة المُرة التي يجب التعامل معها في الملف العراقي هي في دعم الأمريكان لرئيس حكومة طائفي ساعد على تقسيم الشعب الشقيق إلى طوائف وأحزاب وملل، فكيف نتوقع الخير من عميل إيراني يحمل الجنسية العراقية استطاع أن يصنع مما تبقى من الجيش العراقي ذراعًا مسلحة ضمن أذرع الإمبراطورية الفارسية المنشودة لدولة «قُمْ» (أعلى سلطة دينية في طهران)؟

وأضفت:

– إن ممارسات رئيس الحكومة العراقية الشيعي ضد أشقائه السنة هي السبب الرئيسي في الأوضاع الحالية.. لقد نجح هذا البغيض وبامتياز في تأصيل ثقافة العداوة بين أبناء شعبه، عندما اتبع خطة استبعاد السنة من أية مناصب مهمة.. وفي المقابل شعرت العشائر السنية العراقية بحالة يأس وإحباط أدَّيَا إلى مصادمات خفية وعلنية مع المالكي وأتباعه.

ثم عاجلته بسؤالي عن الأخبار المتداولة في الإعلام عن ظهور عزة الدوري - نائب الرئيس العراقي الراحل صدام حسين - فقال لي:

- إن الحديث الآن عن ظهور عزة الدوري في الموصل والادعاء بقيادته لتنظيم «داعش» تحت اسم «جيش النقشبندية» لمواجهة نور المالكي، ثم تأكيد القبائل العراقية السنية بأنها ثورة سنية و«داعش» شوهتها، ثم ظهور مقتدى الصدر الذي دعا إلى تشكيل «سرايا السلام» لمواجهة «داعش»، لَهُوَ أمر ينذر بخطر شديد، وقد يدفعنا مجددًا إلى الدخول في حرب أهلية، تقضي على ما تبقى من العراق الحبيب.

وقبل أن نصل إلى محطة الشهداء بقليل، مفترق الطرق بيني وبين محدثي، حيث سيواصل هو طريقه إلى محطة المعادي، بينما سأغيِّر أنا اتجاهي إلى شبرا، طلب مني أن أناشد عقلاء الأمة وحكامها، وعلى رأسهم رئيسنا عبد الفتاح السيسي والملك عبد الله آل سعود آنذاك، وزعماء وأمراء وملوك الخليج من خلال مقالاتي وزملائي، التدخل السريع لوأد هذه الفتنة التي بدأت تطل برأسها في المنطقة، فقلت له:

- من عيوني حاضر، وصيتك في رقبتي ليوم الدين لعل وعسى.

جاءت محطة الشهداء، وفي أثناء وداعي له، نصحني بسماع أغنية للفنانة الرائعة جوليا بطرس عن الوطن العربي، تتساءل فيها:

- آاااه.. آاااه.. وين وين وين.. وين الملايين.. الشعب العربي وين.. الدم العربي وين.. الغضب العربي وين.. الشرف العربي وين.. ويييين..ويييين..ويين؟!

- ومنذ ذلك الحين وأنا أستمع إلى هذه الأغنية المُزلزلة الجميلة.. انتهى.

الشاب - الفتاة

بعد سماعنا – كركاب – صراخ في محطة مترو جامعة حلوان يصدر عن فتى صغير السن، لا يتعدى الخامسة عشرة، فما كان من الركاب إلا أن بدءوا الخبط بأيديهم على العربات من الداخل والخارج؛ حتى لا يتحرك السائق بعد أن أغلق الأبواب استعدادًا للسير باتجاه المرج.

وقف المترو، وفُتحت أبواب العربات، وتَجمَّع الركاب عند عربة النساء التي شهدت الصراخ.

عن نفسي لم أصدق ما رأيته. النساء يمسكن بفتى صغير السن يتنكر في ملابس فتاة، ويضربنه ضربًا مبرحًا بـ«الشباشب». يبكي الفتى، ويطلب منهن السماح، لكن دون فائدة!!

سألنا عن القصة، فتبين أن هذا الفتى المنفلت يرتدي ملابس فتيات، ويركب عربات مترو السيدات؛ حتى يلامسهن من مناطق حساسة، وهو الأمر الذي جعل إحداهن تصرخ، وتستغيث عندما حاول ملامسة منطقة حساسة بجسمها.

خلال عشر دقائق حضر رجال أمن المحطة، وخلصوا الفتى من يد الراكبات.

أخذني الفضول، وذهبت خلفه؛ حتى أسمع منه أي تفسير عما بدر منه، أثناء التحقيق معه أمام مباحث المحطة.

بمجرد أن «شخط» فيه ضابط الأمن المسؤول، وجدت الفتى منهارًا ويعترف أنه مخطئ ونادم على ما فعله، بل أقسم بالله ألا يفعل ذلك ثانية، إلا أن الضابط أصر على كتابة محضر بالواقعة وإحالته إلى النيابة للتحقيق معه، خصوصًا بعد اعترافه بأنه يرتكب نفس الفعل المشين منذ فترة ليست بالقصيرة.

عندئذٍ حدثتني نفسي همسًا، وأنا أطالع الفتى بين النساء ورجال الأمن:

– واقعة مؤسفة حقًّا تلك التي تجعل فتىً في عمر الزهور يلجأ إلى هذه الحيلة؛ حتى يُشبع رغباته الحيوانية بهذه الدناءة والخسة، وسألت نفسي:

– على من تقع مسئولية انحراف هذا الفتى: على المجتمع، أم على الأسرة، أم على الفتى نفسه؟!

ولأن هذه الواقعة شغلتني جدًّا؛ سألت صديقا لي متخصصًا في علم النفس عما رأيته، فقال:

– إن حالة هذا الفتى تشبه حالات مرضية أخرى موجودة في المجتمع، فمن الناحية التربوية، فإن ارتداء الفتى أو الرجل لملابس نساء له تأثير كبير؛ كونها تصقل شخصيّة الإنسان منذ الطفولة، وتعلّمه تفريق الخطأ عن الصواب، وتشجّعه على احترام القواعد والتقاليد، وتنهيه عن خرق الأعراف.

– بل وتدمجه بسلاسة في المجتمع؛ ذلك أنّ الصورة التي يكتسبها الإنسان في صغره تترسّخ في تفكيره، ويمارسها تلقائيًّا في شبابه.

وأوضح:

– وهذه الظاهرة ترجع لأمرين:

– أوّلهما ضعف أو انعدام علاقة الولد مع الأب من جهة، وتعلّق الأم المفرط عاطفيًّا بالولد؛ ما يدفعه إلى التقرّب الشديد من والدته؛ لملء فراغ عاطفيّ ناجم عن

عدم استقرار عائلي؛ ليكتسب الفتى مع الوقت التصرفات الأنثوية، ويكبر معها.

– وثانيهما نشوء الولد في بيئة مليئة بالنساء والأخوات؛ مما يولّد جوًّا أنثويًّا بامتياز، يتشرّبه الصبيّ منذ نعومة أظافره، وينمو معه بشكل تلقائي؛ لينطبع التأثير الأنثويّ بقوّة.

ويضيف صديقي:

– إن تربية الأولاد بطريقة سليمة ومتوازنة ومدروسة أمر جوهريّ؛ لذلك فالإفراط في الدلع، وتشجيع التصرفات غير الذكورية للصبيّ والافتخار بعادات مكتسبة من الأم إلى ولدها، تصرّفات غير مقبولة، تؤدّي إلى ضياع الصبي نفسيًّا وتشبّثه بالخطأ لا محالة. فبعض الأمور حكر على النساء، مثل انتعال الكعب العالي والتبرّج ووضع طلاء الأظافر، ولا يجوز أن تعلّمها الأم لطفلها، كأمر طبيعيّ لتطبيقه.

لكل ما سبق، وما سيأتي من حالات مشابهة، قال صديقي المتخصص في علم النفس:

– وتبقى مرحلة المراهقة من أدقّ المراحل، التي تتطلّب مرافقة واعية، وتنشئة اجتماعية وعائلية سليمة، ومرافقة حاسمة وقرارات حاسمة، ولا مجال للتهاون أو التغاضي عن الغلط الفاضح؛ كي لا يتحوّل لاحقًا إلى مشكلة نفسية لا تُحمَد عقباها، لكن لا بدّ من التنويه بأنّ «ليس كلّ مظهر أو تصرّف أنثويّ عابر عند الطفل الصغير هو علامة حالة مرضية نفسية، وإنما قد يمرّ الطفل بمرحلة غير خطيرة، مُفادُها غياب الأب أو عدم وجود قدوة ذكورية مثل الأخ الأكبر أو الأصدقاء الذكور في المحيط، وتضمحلّ هذه الحالات بعد تأمين علاقات طبيعية واختلاط الولد مع أفراد عائلته الكبرى والمجتمع».. انتهى.

لقمة عيش

ساعتان بالضبط مَرَّتَا عليَّ وأنا أقف لألاحظ حركة عدد من بائعي المنتجات، والأطعمة من عربة لأخرى في محطة جامعة القاهرة. سألت فتاة لا يتعدى عمرها الـ 12 ربيعًا، تحمل في يدها شنطة صغيرة بها ثلاثة «باكيتات» مناديل، عن سبب خروجها للعمل بهذه المهنة.

أجابتني الفتاة بنبرة ممزوجة باليأس والأسى والمرارة، قائلة:

- هو انت من الشرطة؟

قلت:

- لا والله يا ابنتي.

فقالت:

- طيب إنت بتسأل ليه؟ خليك في حالك، وبلاش تعطلني، أحسن ماما تضربني لو ما سلمتهاش المعلوم زي كل يوم.

قلت لها:

- حاضر يا ست البنات، ولا يهمك.

ثم أعطيتها ما جادت به نفسي، وذهبت إلى حال سبيلها.

بعد مرور حوالي 10 دقائق، وقعت عيني على ثلاثينية، تحمل في يدها شنطة أنيقة، بها أدوات مكياج. سألتها عن الدافع خلف عملها بالمترو رغم المخاطر التي قد تتعرض لها، سواء من الباعة أو من شرطة المترو.

فأجابت:

– على فكرة بقى، أنا خريجة ليسانس آداب قسم لغات شرقية، وهو القسم الذي اكتشفت بعد دراسته أنه لا يوفر أي عمل لصاحبه بعد التخرج، فعملت بمحل لبيع إكسسوارات البنات والمكياج. ولأن الأحوال بعد الثورة أصبحت سيئة للغاية؛ فكر صاحب المحل في بيع المنتجات داخل المترو؛ نظرًا للتجمع النسائي اليومي الهائل داخله، ومن ثم تكون فرص البيع أكبر. ولأن الشغل «مش عيب» وافقت، وبالفعل والحمد لله أحقق مكسبًا لا بأس به.

وتكمل «البائعة» والأسى قد ارتسم على وجهها، ودموعها توشك على النزول:

– لكني أعاني الأمرَّيْنِ من متسولي المترو الذين يحاولون فرض الإتاوات على كل البائعات، إلى جانب شرطة المترو التي تطاردنا كالمجرمين والحرامية، على الرغم من أننا مكافحات نجري وراء لقمة العيش، فنحن نبيع منتجات تباع في كل المحال، ولا ننصب أو نسرق حتى نُطارَد بهذا الشكل المُهين.

وتتساءل:

– لماذا لا يحاولون تقنين عملنا في المترو، من خلال تصريحات تسمح لنا بممارسة هذا العمل، ومن لا يحمل التصريح هو الذي يستحق المطاردة والحبس؟

أجبتها بأن هذا القرار متروك لإدارة المطار، ولعلهم يتخذون فيه خطوة جادة.

فيما اشتركت بائعة أخرى منتقبة في الحديث، وسألتني من واقع خبرتها الطويلة في العمل بالمترو:

- هل أنت صحفي؟

أجبتها بـ«نعم».

عندئذٍ اطمأنت، وبدأت تحكي لي بعض همومها، فقالت:

- أنا موظفة حكومية، وزوجي كان موظفًا أيضًا، وتوفي تاركًا لي أربعة أبناء في مراحل تعليمية مختلفة، ومعاش زوجي مع مرتبي لا يكفي تعليمًا وأكلاً وملابس ودروسًا؛ لذلك لجأت لهذا العمل، فدخلت «جمعية»، واشتريت هذه البضائع من إيشاربات وملابس حريمي، وأخرج من عملي الحكومي إلى عملي الخاص في المترو، وارتديت النقاب حتى لا أصادف أحدًا من زملائي في العمل، أو أقاربي، أو أصدقاء أبنائي، وأعود للمنزل آخر النهار؛ لأتابع مذاكرة أبنائي.

وبحسرة وألم تسألني ذات السؤال:

- لماذا تطاردنا شرطة المترو، وتستولي على بضائعنا وكثيرًا ما تأخذ ما معنا من مال؟! لماذا لا يسمحون لنا بالبيع في داخل العربات وخرجها طالما أننا لا نؤذي أحدًا؟!

فكانت إجابتي عليها، بنفس الكلمات التي ذكرتها لسابقتها.

وقبل أن أذهب إلى حال سبيلي، فوجئت بسيدة أخرى أربعينية، تحمل في يدها بضاعة أيضًا، ويبدو عليها الإرهاق والشقاء.

سألتها:

- ماذا تبيعين حتى أشتري منك؟

قالت:

- أبيع إكسسوارات بناتي وحريمي في منتهى الروعة.

أعطيتها 30 جنيهًا ثمن أشياء جميلة حقًّا، بعد ذلك سألتها عن سبب امتهانها لهذا العمل، فأجابت:

- أنا حاصلة على دبلوم تجارة، ومطلقة، وعندي بنتان، حاولت العمل في أماكن كثيرة، لكن كانت الرواتب زهيدة جدًّا، لا تعينني على تربية البنتين، خاصة أن والدهما رماهما، وتزوج أخرى، ويرفض حتى رؤيتنا؛ لذا نصحتني إحدى صديقاتي بفكرة البيع في المترو، وبصراحة أقرضتني مبلغًا من المال؛ لأشتري به أول بضاعة، وبالفعل اشتريت من الموسكي كمية من إكسسوارات السيدات، وبدأت عملي في المترو.

واستطردت:

- أعمل مع انطلاق أول قطار، حتى الساعة السادسة مساء، ثم أذهب للعمل في عيادة مسائية بجوار البيت، ثم أعود لابنتَيَّ اللتين أتركهما مع أمي الفقيرة التي أنفق عليها وعلى علاجها أيضًا، وأعاني ويلات شرطة المترو التي تهينني وتسمعني أقذع الشتائم، ويأخذون بضاعتي وأموالي أيضًا، وكأنني أسرق الراكبات، وأنا المسروقة لا السارقة، سرق الزمن عمري!

وقبل أن يذهب كلانا إلى وجهته، قلتُ لها:

- لا يجب أن نظلم رجال الأمن، لأن لديهم تعليمات بمواجهة أي أمور قد تسبب الإزعاج للركاب، وبدل أن نلومهم، يجب أن نشكرهم.. انتهى.

أسرار الزهور

رقتها وعذوبة كلماتها مع صديقتها تجعل أيًّا منا يأبى سد أذنيه قبل أن يسمعها، ثلاثينية جميلة – مثقفة تنصح صديقتها الستينية الرصينة بكتابة مقالات في الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية الكبيرة، بعدما قرأت بعض خواطرها على صفحتها بالفيسبوك.

ما سبق كان موقفًا عابرًا في عربة مترو شبرا – الجيزة بين سيدتين تجلسان على مقعد ثنائي أمامي.

بدأ الحوار بسؤال الثلاثينية:

– ليه عاوزة تحرمي الناس من روعة حرفك وعظمة إحساسك وقوة منطقك في التعبير عن قضايا المرأة والمجتمع؟؟

وقبل أن تجيب الستينية، عاجلتها الثلاثينية بسؤال آخر:

– متى ستقررين هذا الأمر؟ ألم يحن الوقت لكي تبدئي؟

– أنتِ تَرَيْنَني أملك موهبة الكتابة، وهذا شعور راقٍ جدًّا منك حبيبتي، وقد حدثتني نفسي أكثر من مرة بدخول هذا المجال، لكني كنت دائمًا أؤجله لظروفي الخاصة، على أمل أنه بوسعي أن أبدأ في أي مرحلة عمرية.

وتردف الستينية:

– نعم عزيزتي، لقد مارست التعبير عن نفسي طوال حياتي بالكتابة، وقد سمعت هذه النصيحة من كثيرين قبل ذلك، ولكن في خريف العمر أيقنت أن مكاني ليس في الكتابة، وإنما في البيت. نعم في البيت وسط نباتاتي التي أحبها وأتفقدها يوميًّا، وتحديدًا في الصباح الباكر.

من محطة الأوبرا تصعد بائعة سماعات هواتف نقالة، تدور على ركاب العربة بصوتها الناعم:

– بصي يا ستي، بص يا أستاذ، أنا النهارده جاية أقدم لكم عرض خاص، سماعة المحبين والخلان والقرايب، سماعة الأسرار، وسماعة كل المنافع. مش هاقول لكم بعشرة جنيه، ولا بسبعة، ولا حتى بستة. كل من طلع خمسة جنيه هياخد هديته من سنية، وسنية دي تبقى أنا أختكم الغلبانة. مين هتشتري مني؟ طيب مين هيشتري منى طالما الستات مخاصمني؟ هههههه».

تبتسم الستينية تعاطفًا ومحبة مع البائعة، وتنادي عليها:

– تعالى حبيبتي، أعطيني سماعتين، وآدي يا ستي 20 جنيه ثمن 4، ولا تزعَّلي نفسك.

البائعة تشكر الستينية، وتدعو لها قبل أن تنزل محطة الدقي:

– روحي يا ستي، يا حبيبتي، الله يسترك ويخلي لك جوزك وأولادك.

الثلاثينية بصوت هادئ للستينية:

– الله على دي دعوة، هو فيه أحسن من الستر؟ الله يكرمك، شفتي إنك إنسانة جميلة القلب؟

الستينية:

- الحمد الله على نعمته التي لا تحصى ولا تعد.

الثلاثينية تغلق موضوع البائعة، وتكرر محاولة إقناع صديقتها بالبدء في كتابة المقالات...

تقاطعها الستينية، وتوضح:

- النباتات بالنسبة لي يا صديقتي كأولادي الصغار، تغمرني فرحة الأطفال عند رؤيتي لبرعم أو أوراق صغيرة جديدة على الأغصان، فهذه علامات الاستمرارية والحياة المتجددة، كذلك أحزن – كل الحزن - عندما تمرض إحدى نباتاتي وتنكفئ على نفسها، وأحاول جاهدة معالجة الأمر، فأتابعها على مدار الأيام، بل والساعات، وقد تفلح محاولاتي، وقد لا تفلح.

الثلاثينية:

- لكن هذه الحياة رغم متعتها، لا بد أن....

الستينية توضح موقفها:

- صديقتي الرائعة دائمًا، الزراعة ترقب وأمل وحياة.. أهتم بها وسط هواياتي المتعددة.. والتي تتمحور معظمها حول الأشغال الفنية اليدوية، طبعًا إلى جانب قراءاتي وحبى للتأمل وسماع الموسيقى (الكلاسيك) وكتابة خواطري التي تعجبك أحيانًا على الفيس.

الثلاثينية بحُنُوّ ومودة:

- معاك حبيبتي، لكن فين انتي من أهلك وناسك وكل اللي بيحبوكي؟

الستينية تضحك:

- هههههه... تاني يا ستي، مكاني أيضًا أقضيه بجانب المقربين جدًّا مني، فأنا

أمثل لكل شخص منهم عدة أدوار، فقد أكون الأخت أو الصديقة أو الأم أو شريكة العمر، أو هذه الأدوار مجتمعة، وهؤلاء أيضًا يمثلون بالنسبة لي كل حياتي.

الثلاثينية تواصل محاولتها:

- لكني أشعر في كتاباتك الفيسبوكية بعض الألم والمعاناة، فهل لذلك تفسير؟

الستينية:

- هذه المعاني أحاول دائمًا أن أجملها بأبسط الأشياء، لعلنا نتناسى ونرتفع فوق الألم وخيبات الأمل التي نواجهها ككل البشر.

وتواصل:

- فالكتابة بكل أنواعها ما هي إلا وسيلة رائعة للتعبير عن موقفنا عموما من الحياة، ومن يكتب لا يتوقف حتى النهاية، فالكتابة كالماء والهواء بالنسبة للكاتب.

الثلاثينية:

- الله الله، إذًا فلتكن البداية صديقتي الفيلسوفة.

الستينية تزيد من ضحكاتها:

- هههههه، فيلسوفة مرة واحدة. الكتابة يا عزيزتي طريق طويل لم أسلكه منذ البداية كهدف لحياتي، وقد تجاهلت هذا الطريق عن عمد، بل وأغلقت هذا الباب ورائي، وسلكت أبوابًا أخرى شاقة ومضنية، واليوم أدرك أن لا شيء يحدث بالصدفة، وأن كل ما حدث كان مقدرًا رغم حريتي المطلقة في الاختيار.

الثلاثينية:

- حيرتيني يا ست الستات.

الستينية:

– أنا!!!، ليه بس؟! كل ما في الأمر أن اختيارات الأمس أدت لسلسلة أخرى من الاختيارات الحرة، أو التي تبدو كذلك، وتلك الاختيارات لم يكن بينها الكتابة.

وتواصل:

– واليوم أدركت أن هناك قوة جبارة لا نهائية تهيمن على كل الأمور، وتسبب الأسباب والنتائج رغم حريتنا المطلقة في الاختيار!

وتختتم الستينية حديثها وهي تهمُّ بالنزول مع صديقتها محطة السادات بالسؤال التالي:

– حبيبتي، هل وفِّقْتُ في الإجابة عن أسئلتك؟ أم أنني زدت الأمر تعقيدًا، وطرحت اسئلة لا يملك معظمنا الإجابة عنها؟!

الثلاثينية بابتسامة عريضة:

– غلّبتيني معاك يا فيلسوفة. صحيح على رأي المثل: «الناس فيما يعشقون مذاهبُ».. انتهى.

الملكـــــــة

استيقظت من نومي كعادتي في السابعة صباحًا بعد فترة راحة عقب صلاة الفجر جماعة، تقترب من الساعتين.. توضأت وصليت ركعتين لله حمدًا وشكرًا على نعمه التي لا تُحصى ولا تُعد.

بعد ذلك تناولت بعض الأطعمة وما تيسر لي من الشاي والقهوة التي اشتهيها دائمًا من يد زوجتي الحبيبة.

وفي أقل من 10 دقائق كنت قد ارتديت ملابسي قاطعًا طريقي اليومي من مقر إقامتي بمنطقة المرج القديمة، متجهًا إلى منطقة الدقي مكان عملي بجريدة الدستور.

ركبت عربة المترو الأولى بعد فترة انتظار دامت حوالي عشر دقائق. لفتت انتباهي بكلماتها منذ أن جلستُ قريبًا منها.

وبكل أمانة لا أجد وصفًا بعينه يستطيع أن يظهر معدنها الأصيل، وأكون صادقًا مع نفسي وقارئي إذا قلت:

- يعجز لساني عن وصف وطنيتها وأصالتها وعشقها لشعبها وأرضها، هي باختصار شديد امرأة تتجاوز السبعين عامًا، لم تنَلِ التجاعيد التي طبعها الزمان على

وجهها من حيويتها وفصاحتها رغم أُمِّيَتِها كما تأكدت فيما بعد.

- ترتدى جلبابًا وقورًا، شاهدتها وسمعتها تلقن أحفادها من الشباب والصبية، المتفقين منهم والمختلفين على حب مصر، دروسًا في الوطنية ونبذ الخلاف؛ حفاظًا على وحدة صف المصريين.

- بهرتني قوة كلماتها وثقافتها وحسها الوطني وصدقها في الحديث، وصدقوني أيضًا إذا قلت إن وعيها السياسي يفوق سياسيين ومثقفين وإعلاميين، وبالتأكيد نشطاء السبوبة «المقرفين» الذين ملؤوا الفضائيات والصحف والمواقع الإلكترونية بتفاهاتهم وحقدهم وعمالتهم.

من ضمن ما قالته هذه السيدة العظيمة، ناصحة أمينة للركاب:

- إن الله عز وجل وعد في كتابه الحكيم بحفظ مصر حينما قال: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩].

- وإن الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أوصى صحابته بمصر وشعبها حينما قال: «إذا فتح الله عز وجل عليكم مصر، فاتخذوا بها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الله، فقال أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه وأرضاه ــ «لِمَ يا رسول الله؟ فقال الحبيب محمد: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

ولم تكتفِ الحاجة «مريم»، وهذا هو اسمها، بذلك، بل أشادت في حديثها بما قاله البابا شنودة «مصر وطن يعيش فينا وليس وطنًا نعيش فيه».

أخذني الفضول، وسألتها:

- كيف تنظرين إلى ثورة ٣٠ يونيو والنتائج التي وصلنا إليها الآن؟

نظرت إليّ باستغراب، واندفعت في الإجابة كالصاروخ، فقالت لي:

- شوف يا ابني، الشعب ثار على عصابة تاجرت بالدين والدنيا معًا. الشعب رفض الكهنوت، وصفع كهنة المعبد بالنعال، وأزاحهم عن السلطة بعد عام أسود كشفوا فيه عن سوءاتهم. الشعب اختار بعد ذلك النموذج الأفضل للرئاسة؛ حتى يعبر بمصر إلى بر الأمان، ويحميها من مؤامرات الإنس في الداخل والخارج. الشعب الآن يا ولدي يكتب تاريخه الجديد بيده.

هذه المفردات وقعت على قلبي قبل عقلي كالبلسم الشافي، ثم سألتني الحاجة مريم عن عملي.

لم أجد مفرًّا أمام الركاب من أن أقول لها إنني صحفي- وطني يعشق تراب مصر مثلها تمامًا.

ابتسمت، وقالت لي:

- أوصيك وغيرك من الإعلاميين بصدق الكلمة، وأمانتها في ظروف تعانى فيها مصر من العملاء والأفاقين والمرتزقة والخونة.

أجبتها وعيناي وقلبي وحواسي تتعاطف مع كل حرف تقوله:

- حاضر يا حاجة. نصيحتك غالية وسأعمل بها بإذن الله تعالى.

وقبل أن تقترب المحطة التي أقصدها، استأذنت الحاجة مريم في الانصراف، ودعوت الله لها بالصحة وطول العمر، وردد جميع الركاب الذين شاهدوها وسمعوها خلفي هذا الدعاء، ثم قبلت رأسها، وانصرفت.

هذا الموقف لم يفارق ذهني منذ هذه اللحظة وحتى الآن. ولا أدري كيف قارنت بينها وبين كثيرات من نساء الإخوان اللاتي أعرف بعضهن، ووجدتني أستحضر مشاهد العنف والإرهاب والتفجيرات والقتل التي يمارسها أتباع «البنا وقطب ومشهور وعاكف وبديع» منذ نشأة الجماعة الإرهابية وحتى الآن.

لحظتها سألت نفسى:

- من الذى غرس في رأس هذه السيدة العظيمة ــ غير المتعلمة ــ كل هذا الحب لمصر وشعبها؟ ثم من الذي عبث بعقول المرأة الإخوانية وحوَّلها إلى عدو مبين لوطنها؟ بالطبع جميعنا يعرف الإجابة جيدًا.

وطَوالَ حديثها في المترو كنت أنظر إليها وكأنها إحدى ملكات الأُسَر الفرعونية «حتشبسوت» و«نفرتاري» و«نفرتيتي» و«إياح حتب».

ثم تذكرت أيضًا كيف استطاعت إحداهن أن تلد بطلاً مثل أحمس الأول الذى قضى على الهكسوس، وطهر منهم مصر إلى الأبد.

وربطت بين هذا التاريخ وما نمر به اليوم، وهنا أدركت كلمات شاعرنا العظيم حافظ إبراهيم حينما قال: «الأمُّ مدرسة إذا أعددتَها.. أعددتَ شعبًا طيب الأعراقِ.. الأمُّ رَوْضٌ إنْ تَعهَّدَه الحَيا.. بالرِّيِّ أوْرَقَ أيَّما إيراقِ».

حفظ الله مصر ونساءها الشريفات الوطنيات المخلصات..انتهى.

اليـــأس ...

صراخ النساء المتواجدات في محطة مترو غمرة أيقظني من رحلة ذهنية ممتعة ذهبت فيها إلى مملكة السويد، التي قضيت فيها أجمل أيام حياتي.. لحظتها كنت متجهًا إلى منطقة المرج.. نزلت من العربة، ووقفت أشاهد الواقعة، وجدت رجال الأمن يحملون جثمان شاب في عمر الزهور ويلفونه بقطعة كبيرة من القماش الأبيض، وذلك بعدما تم إبلاغهم من قبل موظفي المحطة بانتحاره.

سألت عن تفاصيل الواقعة.

علمت أنه في ريعان الشباب، ومن الواضح - حسب شهادة الشهود - أنه أقدم على الانتحار لظروف اجتماعية صعبة، ونفسية معقدة يقاسيها!

لم أقتنع بما سمعت، وتملكتني حاسة الفضول. ذهبت أسأل هنا وهناك عن تفاصيل أكثر للواقعة من بعض الذين شاهدوا. قال لي أحدهم:

- لقد رأى بأم عيني هذا الشاب وهو يُلقي بنفسه أسفل عجلات مقدمة المترو أثناء وصوله إلى المحطة، الأمر الذى أسفر عن وفاته في الحال.

تدخلت فتاة عشرينية في الحديث، موضحة أنها كانت تقف خلف الشاب، وسمعته يهذي بعبارات غير مفهومة.

سألتها:

- مثل ماذا لو تتذكرين؟

ردَّت على السؤال بسؤال:

- هل أنت جهة تحقيق؟

- أبدًا، ولكني فقط أريد أن أرصد الحالة؛ لأقف على أسباب الانتحار؛ حتى أكتب عنها كصحفي يحمل على كاهله هموم هذا الجيل البائس من الشباب.

انهمرت الفتاة بالبكاء، وقالت:

- سأوضح لك يا «أبيه» ما سمعته بالضبط.

نظرت إلى الفتاة وهي تلملم بقايا أحزانها المبعثرة من «هول» الحادثة، وحاولت أن أخفف عنها بعدما ساعدتها بالجلوس على أحد مقاعد المحطة؛ نظرًا لحالتها الصعبة التي شاهدتها عليها.

تناولت الفتاة كوبا من المياه، وبعد أن هدأت أعصابها وتمالكت نفسها، بدأت تكشف لي عن بعض العبارات التي سمعتها من هذا الشاب قبل انتحاره بلحظات، فقالت:

- كل ما أتذكره أنني سمعته يلعن الظروف التي جعلته فقيرًا لا يجد فرصة عمل مقارنة بأولاد الذوات.

وأضافت:

- سمعته أيضًا يسأل الله سبحانه وتعالى قائلاً:

- يا رب،أكثير على مثلي أن أعيش مثل أولاد الناس؟! يا رب هل كُتب عليّ أن

أعيش تعيسًا في الدنيا؟!

واستطردت الفتاة:

– أثناء حديث الشاب بتلك الكلمات بصوت منخفض، وبمجرد وصول المترو إلى المحطة، فوجئت به وقد ألقي بنفسه أمام القطار!

وحتى لا أثقل على الفتاة.. شكرتها وقلت لها:

– كفى يا ابنتي، ونسأل الله له الرحمة والمغفرة، وألا يعاقبه على فعلته؛ فهو أرحم بعباده من أنفسهم.

وقبل أن تنصرف الفتاة سألتني:

– يا عمو، هل سيذهب هذا الشاب إلى النار لأنه انتحر؟

قلت لها:

– يا ابنتي، لا شأن لنا بحديث الجنة والنار.. لكن نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

استأذنت الفتاة، بعد أن شكرتها ثانية، واستقللتُ المترو المتجه إلى التحرير ناهضًا لعملي، وتذكرت ما جاء في الأحاديث النبوية بأن الانتحار من كبائر الذنوب، كما بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن المنتحر يعاقب بمثل ما قتل نفسه به.

واستحضرت حديثًا للصحابي الجليل أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:

– مَن تَردَّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومَن تحسَّى سمًّا فقتل نفسه، فسمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا

فيها أبدًا، ومَن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يُجَأْ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. رواه البخاري ومسلم.

حينها فاضت عيناي بالدموع على هذا الشاب، وكل شاب في مثل ظروفه، ورفعت وجهي إلى الله طالبًا منه المغفرة له ولنا جميعًا، وسألت نفسي:

- هل يا ترى سيُحاسب من حرم هذا الشاب من فرصة العمل التي تسببت في بغضه لنفسه وللدنيا، فلم يجد أمامه وسيلة إلا الانتحار؟!.. انتهى.

المُنتـــــظَر

حقًّا شر البلية ما يُضحك.. رجل في العقد الرابع من عمره يصعد عربة المترو من محطة المطرية باتجاه رمسيس، ملابسه رثة للغاية، مُجهد الملامح، بيده عصا غليظة، كثيف اللحية والشارب وشعر الرأس، تُشتمُّ منه رائحة نتنة، نظر إلى ركاب العربة، وقال:

– اسمحوا لي يا سادة، أنا مش هاخد من وقتكم كتير.. أنا مش شحات ولا منتظر صدقة.. أنا صاحب رسالة ولازم أوصَّلها.. باختصار كده بقى، أنا المهدى المنتظر!!

قبل أن يواصل حديثه، استوقفه رجل أمن يرتدى ملابس أمناء الشرطة، وآخر مدني متدين بعض الشيء فيما يبدو، وطلبا منه التوقف عن الكلام والاستعداد للنزول من العربة في المحطة القادمة، وإلا سيسلمانه إلى مباحث المترو.

تفحَّصَ الرجل كل ركاب العربة من رجال ونساء بنظرات ثاقبة، تنمُّ عن خبرة أمنية غير عادية، فجأة طلب من بقية الركاب مساعدته، حتى ينتهي من كلامه، ولا أدري كيف سمحت لنفسي مناشدة أمين الشرطة بإعطائه الفرصة لطرح ما لديه.

وبالفعل وافق أمين الشرطة وبقية الركاب، وتركوه لمدة عشر دقائق، حتى يُفرغ ما عنده. تابعت حديثه بدقة، بدا أمامنا في كامل قواه العقلية، كلامه مُرتَّب إلى درجة غريبة، لغته سليمة وقوية جدًّا.

ظل يؤكد أنه المهدى المنتظر، وأنه على اتصال مباشر بالمسيح الدجال، وعدد كبير من الملائكة المقربين!!

ليس هذا فحسب، بل ادَّعَى أيضًا أنه من السادة الأشراف، ويرجع نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه وأرضاه).

وواصل حديثه بأن نزول المسيح الدجال بات قاب قوسين أو أدنى، موجها نصيحته لكل من يسمعه أن ينقل عنه هذا الكلام للآخرين؛ حتى يهرولوا إلى التوبة والغفران، ويصححوا إسلامهم، ويتبعوا ما أنزله الله جلَّ شأنه في قرآنه الكريم! وما جاء بسنة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم)!!

استمر هذا الشخص العجيب في هذيانه، مكررًا ادعاءه بأنه أصبح خليفة الله في الأرض لنصرة المظلوم ومحاربة الفساد، والقضاء على أعداء الإسلام، وتحرير القدس الشريف من براثن آل صهيون، بعد أن يمحو إسرائيل وأمريكا من الوجود!!

وقبل أن يستعد «المهدي» للنزول في محطة الدمرداش، كان أمين الشرطة قد أجرى اتصالاته ببعض زملائه الأمناء الذين تجمعوا في المحطة، وألقوا القبض عليه.

في هذه اللحظة، وهو محاط برجال الأمن؛ نظر إلى ركاب العربة قائلاً:

-أنا صاحب رسالة، وسأنشرها بالكلمة الطيبة والسلام، ولا تنسوا أن تبلغوا عني ما سمعتم!!

وبسؤالي لأحد علمائنا الأفاضل عما قاله هذا الرجل، أكد أن هذه النوعية من الناس مصابون بـ «الخبل».

ولمعرفة معلومات مختصرة عن المهدي المنتظر بعيدًا عن شطحات أهل المذاهب المختلفة، قال لي هذا العالم - وهو من أهل السنة والجماعة:

- إن من شروط الساعة خروج المهدي آخر الزمان، فيملك سبع سنين، يملأ

الأرض فيها عدلاً، كما مُلئت جورًا وظلمًا، وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويفيض المال.

وقد جاءت السنة ببيان اسمه وصفته ومكان خروجه، فمن ذلك:

- أولاً: ما رواه أحمد والترمذي وأبو داود أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي».

- ثانيا: عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: المهدي من عترتي من ولد فاطمة. رواه أبو داود وابن ماجة، وصححه الألباني.

- ثالثا: عن علي، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة».

- رابعا: عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويُعطي المال صحاحًا، وتخرج الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا. يعني حججًا».

- خامسا: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم».

باختصار: هذا بعض من كل مما ورد في ذكر المهدي وخروجه آخر الزمان. وقد بلغت أحاديثه حد التواتر، كما صرح بذلك جماعة من أهل العلم.. انتهى.

الشُرطيـــــة

بعد ترتيب مسبق، عقبه قضاء يوم كامل وممتع في حديقة حيوانات الجيزة مع أسرتي: زوجتي وابني: الأكبر والمتوسط وابنتاي.

توجهنا جميعًا إلى محطة جامعة القاهرة؛ لنستقل المترو المتجه إلى رمسيس، ومنه إلى المرج القديمة، ذهبت الزوجة والابنتان إلى عربة السيدات، وذهبت أنا مع ولدَيَّ إلى عربة الرجال.

في محطة رمسيس نزلت زوجتي وابنتاي من عربة النساء، وفي أيديهن بائعة خمسينية «نصبت» عليهن في علبتي مكياج «مضروبتين».

نزلت من عربة الرجال مع ولديَّ على صوت زوجتي مع البائعة، وبعد شد وجذب لمدة 10 دقائق تقريبًا، علمت أن ثمن علبتي المكياج «المضروبتين» 80 جنيهًا، حاولت جاهدًا رد البضاعة للبائعة واسترجاع المبلغ منها بهدوء، لكنها رفضت رفضًا باتًّا بعد أن هددتني بالاستعانة ببلطجية من خارج المترو، إن تعرضنا لها.

لم ينقذ الموقف سوى ضابطة شرطة برتبة عقيد، بعد أن أمسكت بالبائعة، واقتادتها - ونحن بصحبتها - إلى مكتب الأمن الموجود بالمحطة؛ لتحرر لها

محضرين: الأول بمخالفة قوانين المترو، والثاني بالنصب والاحتيال على الركاب ببيع بضائع «مضروبة».

وما هي إلا دقائق معدودة، وفوجئنا بانهيار البائعة ودخولها في نوبة بكاء هستيرية، طالبة من ضابطة الشرطة ومني ومن زوجتي وأولادي التنازل عن المحضر مقابل رد المبلغ !!

أمام هذا الموقف الإنساني، حاولت زوجتي وابنتاي أن يستعطفن ضابطة الشرطة لإنهاء الموقف على خير، خصوصا بعدما سمعن من البائعة أنها تعول ثلاث فتيات في عمر الزهور بعد وفاة زوجها.

لكن ضابطة الشرطة رفضت ذلك بشكل قاطع، وبعد تكرار توسلي وولديَّ للضابطة مع زوجتي وابنتاي، قبلت إنهاء المشكلة، وتركت البائعة تذهب إلى حال سبيلها، بشرط عدم عودتها إلى هذه التجارة مرة أخرى.

وقبل أن ترحل البائعة، رفضت زوجتي، وكذلك أولادي أن يستردوا منها ثمن البضاعة، ومنحوها مبلغًا إضافيًّا؛ تعاطفًا مع ظروفها.

أمام هذا المشهد شكرت الله على سلوك زوجتي وأولادي مع البائعة، على الرغم من أن بعض أفراد الأمن الذين حضروا هذا الموقف أكدوا لنا أن معظم بائعات المترو «نصابات» و..... انتهى.

المُدخِّنـــــة

من أطرف المواقف التي صادفتني في حياتي مشهد لسيدة تقترب من الخمسين عامًا تُخرِج سيجارة مارلبورو ومشط كبريت من حقيبتها - الجلد الطبيعي - وتشعلها في عربة مترو مخصصة للرجال!!

ولأنني فوجئت بهذا الموقف في الساعات الأولى من نهار يوم اثنين على ما أتذكر، لحظة صعودي من محطة الشهداء للتوجه إلى محطة أم المصريين، جعلت من عيني راصدًا جيدًا لردود الأفعال «الرجالي» على هذا الحدث الأنثوي في عدد من اللقطات السريعة:

اللقطة الأولى:

- شاب أمسك بهاتفه المحمول، ويبدأ في التسجيل «صوت وصورة» للسيدة وهى في حالة انسجام تاااااااام بدخان سيجارتها، متجاهلة بذلك اعتراض جميع ركاب العربة، ذكورًا وإناثًا.

اللقطة الثانية:

- مشادة كلامية بين الركاب تكشف عن عدد من المعارضين وآخر من المؤيدين للتدخين داخل المترو، بصرف النظر عن كون من فعلها سيدة أم رجلاً.

اللقطة الثالثة:

- المشهد نفسه به من الطرافة ما يجعل الإنسان «العاقل» يبحث ويدرس شخصية السيدة المدخنة، وسلوك الركاب، سواء المتعاطفون مع جرأتها، أم الرافضون لسلوكها، خصوصًا من سيدة يبدو من ملبسها وحديثها أنها مثقفة جدًّا.

اللقطة الرابعة:

- قيام شاب «متزمت» بالاقتراب من السيدة، وخطف السيجارة من يدها؛ ليلقى بها على الأرض، في الوقت الذي يتدخل فيه شاب آخر «متفتح بعض الشيء»، وينهر «المتزمت» على فعلته، ويطلب منه الهدوء؛ حتى يسمع الدوافع التي جعلت هذه السيدة تقبل على تلك الخطوة، بعد أن قال للمدخنة بكل أدب واحترام:

- سيدتي، صدرنا بيتعبنا من الدخان وأن التدخين ممنوع في المترو .

لحظتها استوعبت السيدة المدخنة جُرم ما أقدمت عليه، وقالت:

- «أنا كمان صدري بيوجعني، ومع ذلك، فيها إيه لما ادخن سيجارة؟!، وعلى أي حال أنا باعتذر منكم جميعاً، إن كنت قد تسببت لكم، أو لبعضكم في كل هذه الأزمة».

وتضيف السيدة:

- أنا يا دوب واصلة من أوروبا، ولم أنتبه حقيقة أن التدخين ممنوع في المواصلات العامة داخل مصر، رغم أنني لا أستطيع القيام بهذا الفعل في الخارج؛ نظرًا للقوانين الرادعة التي تطبق على المسئول الكبير قبل الصغير.

اللقطة الأخيرة:

- كان مهمًّا جدًّا أن أتدخل في الحوار من باب الفضول، أو على الأقل بحكم

المهنة.. فما كان مني إلا أن تحدثت ببعض الكلمات التي تتناسب مع الموقف، على سبيل المثال: حصل خير يا جماعة، ولا داعي للاستمرار في سجال لا طائل منه و....

فردت السيدة بشكل راقٍ جدًّا، وقالت:

- رغم كل ما أصابني من نظرات غريبة وكلمات قاسية جدًّا على سمعي، إلا أنني سعيدة بهذا الموقف، الذي كشف لي عن مدى حرصكم على نظافة مرفق حيوي بأهمية مترو الأنفاق.

بعد هذه الكلمات، وجدت معظم ركاب العربة يعتذروا للسيدة المدخنة على ما بدر من بعضهم تجاهها، ومن ثم بادلتهم هي نفس الشعور والكلمات الطيبة، وانتهى الموقف وكأن شيئًا لم يكن.. انتهى.

الخيانـــــــة

على الرغم من عدم وقوف المترو إلا لحظات في محطة المطرية خشية من خطر شباب الإخوان على ركابه.

إلا أن تلك اللحظات كانت تعادل عندي زمنًا كبيسًا بسبب ما وقعت عليه عيناي من مشاهد لشباب الإخوان يندَى لها الجبين، وهم يرفعون علم إسرائيل في حرم المحطة!!

في هذا الوقت استيقظت على واقع أليم لحقيقة أكثر ألمًا وإيلامًا لمؤسس هذه الجماعة الإرهابية ومن أتى بعده من القيادات.

وبسرعة البرق استحضرت ما سبق وكشفه عنه أحمد حسين - مؤسس حزب مصر الفتاة - عام ١٩٤٨ عن كذب وادعاء هؤلاء الـ «.....»، وذلك حينما قال:

- «إن البنا أذاع في العالم أجمع أن جيوشه سترهب الصهاينة وتحرر فلسطين، وأنه جهز كتيبة قوامها عشرة آلاف إخواني، وأنه يُجهز ويُعد كتيبتين أخريين للحاق بالكتيبة الأولى، إلى آخر هذه الأكاذيب».

ويسخر «حسين» من تلك الادعاءات، فيقول:

- «لقد اتضحت صورة هذه الجماعة بعد صدور قرار هيئة الأمم المتحدة

بتقسيم فلسطين، وأصبح لا مجال للحديث عن المزايدات، ومن ثم سكت القلم، وانتظرنا السيوف أن تتكلم، وأن تعمل، فتطيح بالرقاب، رقاب الأعداء الكفرة من الصهاينة وأنصارهم، لكن المسألة كما يعرف الشيخ البنا وأتباعه ليست إلا دجلاً وشعوذة وضحكًا على عقول المصريين، وغيرهم ممن يأملون شيئًا من الشيخ وأعوانه».

وخلال رحلتي التي امتدت في المترو لأكثر من ساعة، تذكرت أيضًا الخطاب السيئ الذي قرأته في مؤلف لأحد القيادات الإخوانية المنشقة ، وهو الصديق ثروت الخرباوي (المحامي والكاتب الكبير) لمنُظر الجماعة الإرهابية سيد قطب في جريدة «التاج المصري» بعنوان «لماذا صرت ماسونيًّا؟!».. والذى يقول فيه:

– لقد صِرتُ ماسونيًّا؛ لأنني كنت ماسونيًّا، ولكن في حاجة إلى صقل وتهذيب، فاخترت هذا الطريق السوي؛ لأترك ليد النيابة الحرة مهمة التهذيب والصقل، فنعم اليد ونعم البناءون الأحرار!.. ولقد عرفت أن الماسونية ليست مبدأ أو مذهبًا يُعتنَق.. وإنما هي الرجولة والإنسانية التي تدفع بالإنسان إلى عمل الخير دون وازع إلا وازع من وجدانه وضميره، وأنها (الماسونية) هي روح عالية نبيلة تسمو بالإنسان عن الصغائر، وتنزهه عن الترهات والسفاسف، وهى المثل الأعلى لكل من ينشد كمالاً، أو يبغى رفعة ومجدًا، وهى الفضيلة التي تنطوي على أسمى المعاني وأشرف المقاصد وأنبلها، وهي مبدأ الكمال ومنتهاه!!

وما بين هذا وذاك، استحضرت أيضًا ما كتبه كاتبنا الوطني العملاق عباس محمود العقاد عن حقيقة حسن البنا في مقال له بـ «أخبار اليوم من مصر»، يقول فيه:

– إن «البنا من أسرة مغربية ذات أصول يهودية، وإن ترجمة كلمة «البنا» إلى الإنجليزية تعنى «MASON» ماسوني، وإن البنا وأباه وجده كانوا يعملون في

تصليح الساعات، وهى مهنة اليهود آنذاك».

حكايات وقصص وروايات تدمي القلوب عن خسة اليهود العرب المحترفين في عمليات التخفي والتجسس وتقمُّص الشخصيات.

فالماسونية – كما فهمتها – تعمل دائمًا من خلال أصحاب الكاريزما مثل «البنا» في مصر ومصطفى كمال الدين أتاتورك في تركيا، واليهودي كامل ثابت – الذى كاد أن يصبح رئيسًا لوزراء سوريا لولا جهود رجال المخابرات المصرية – هؤلاء جميعًا ومن على شاكلتهم استطاعوا التخفي تحت عباءة الإسلام بمساعدة أبناء جلدتنا من الخونة والعملاء!!

وبعد أن نزلت من المترو، متجهًا لمقر جريدتي بمنطقة الدقي، لا يفوتني هنا ذكر ما أضافه لي صديقي وزميلي العزيز حسن بديع – الصحفي بذات الجريدة التي أعمل بها حينما رويت له ما حدث معي في المترو وما دار برأسي عن هذه الجماعة وعن عدائها للدولة، فقال لي:

– في خطبة مشهورة لـ«البنا» لمريديه عام ١٩٤٠ وقف يثنى على اليهود، فيقول: «إن هذا الجنس قد انحدر من أصول كريمة؛ لهذا ورث حيوية عجيبة.. وإن كان قد أساء إلى نفسه وإلى الناس بتوجيه هذه الحيوية فيما بعد إلى ما لا ينفع، انحدر هذا العنصر من يعقوب بن إبراهيم، فورث الروحانية كابرًا عن كابر»!

وتساءل «بديع»:

– وهل نسينا تصريح عصام العريان – القيادي البارز في الجماعة الإرهابية – والمحبوس حاليًّا على ذمة قضايا التحريض والإرهاب، عندما ناشد اليهود في حواره مع الإعلامي حافظ الميرازي على قناة «دريم» بالعودة إلى مصر، وقد نَسِيَ «العريان» أو تَناسَى – ربما – أن هؤلاء الذين يناشدهم بالعودة إلى مصر مجموعة من المستوطنين الذين اغتصبوا أرض فلسطين، وحاربونا في ٣ معارك، وقتلوا

أسرانا، واحتلوا سيناء، ونهبوا ثرواتنا.

بعد حواري مع زميلي حسن بديع، وما رأيته من شباب الإرهابية وهم يرفعون علم إسرائيل نكاية فينا بعد أن اعتقلنا «مرسيهم»، وطردناهم شر طردة من الحكم؛ بسبب خيانتهم وعمالتهم مع العدو، أصبحت أؤمن بما لا يدع مجالاً للشك أن «البنا» وإخوانه لم ينتموا يومًا لمصر.. بل يعملون لصالح الغرب، كلٌّ حسب دوره المطلوب منه.. انتهى.

القُضاة والصحفي

استقللتُ المترو من محطة الأوبرا متجهًا إلى محطة شبرا، عدد الركاب في العربة لا يتجاوز 15 راكبًا، جلست بجوار ثلاثة رجال تظهر عليهم علامات النعمة والوقار، سمعت أحدهم يقول لزميليه:

– إذا رأيت فقيرًا في بلاد المسلمين، فاعلم أن هناك غنيًّا سرق ماله.

رد عليه الثاني قائلاً:

– كلمات مأثورة لفضيلة الإمام محمد متولى الشعراوي (رحمه الله وغفر له) وبظني أن هذا الكلام كان استغاثة وصرخة مؤلمة أطلقها الإمام لمبارك وعصابته؛ بسبب الحالة المزرية التي وصل إليها السواد الأعظم من الشعب؛ بسبب الفقر والبطالة والمرض واليأس.

تَدخَّلَ الثالث في الحوار، وقال:

– ده كلام صحيح جدا؛ لكن للأسف الشديد ذهبت هذه الصرخة أدراج الرياح.. فكان طبيعيًّا أن يخرج المصريون عند أول شرارة تشتعل ضد الظلم والطغيان.. حيث نجح الشعب في خلع مبارك في أيام معدودة بعد قيام ثورة ٢٥ يناير، وطالب برجوع حقوقه السليبة من اللصوص و«الهَبِّيشة»، لكن هذا لم

يحدث، وفوجئنا بعد ذلك بظهور أعداء جدد.

وأردف:

- جيوش من الخونة والعملاء مثل هؤلاء استطاعوا سرقة الثورة وخطف عرش مصر لمدة عام أسود بمساعدة الأمريكان. ولأنهم في الأصل لا ينتمون لمصر، فقد فشلوا فشلاً ذريعًا، وطردهم المصريون شر طردة من خلال ثورة عظيمة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في ٣٠ يونيو ٢٠١٣، بعدها تَوهَّمَ أزلام المخلوع أن الفرصة قد سنحت لهم مرة أخرى لاستعباد العباد والاستيلاء مجددًا على البلاد، وبدءوا في مسلسل الظهور الإعلامي والسياسي بشكل «مقزز» أثار الناس، وأشعل غضبهم.

فما كان مني إلا أن استأذنتهم في الإدلاء برأيي، فرحبوا بي، وأعطوني الفرصة، فقلت:

- إن معدومي الضمير وفاقدي الوطنية ظنوا أن الشعب سيغفر لهم جرائمهم، ويتركهم يعودون لمناصبهم؛ حتى لا يحاسبهم أحد على فسادهم وإفسادهم، ولم يستوعبوا الدرس بعد، بل لم يفهموا أيضًا أن المواطن الذي ثار على نظامين سابقين أحدهما فاسد والآخر خائن وعميل في أقل من ثلاث سنوات، لا يمكن أن يتركهم دون أن يحاسبهم على جرائمهم، ويرجعهم مرة أخرى إلى السجون إن عاجلاً أو آجلاً.

وأضفت:

- وخيرًا فعل الرئيس عبد الفتاح السيسي حينما أمر بفتح مكتب لمحاربة الفساد يشرف عليه رجل قضاء وطني، لكن بظني أن هناك إجراءات أخرى مكملة لهذا التوجه، ولابد من أخذها في الاعتبار؛ لمحاسبة كل من خان وسرق مصر

وشعبها، منها قانون «من أين لك هذا»، وقانون «إفساد الحياة السياسية».

في أثناء هذا الحوار عرفت منهم أنهم قُضاة، وبكل أدب واحترام طلبوا مني استكمال حديثي عن فساد رجال مبارك، خصوصًا بعدما عرفوا أنني صحفي، فقلت لهم:

- تحضرني واقعة اطلعت عليها بمحض الصدفة في مواقع التواصل الاجتماعي ملخصها أن عجوزًا امتثل أمام قاضٍ بسبب سرقته لرغيف خبز يسد به رمقه.

اعترف العجوز بالواقعة، مبررًا ذلك بأن الجوع هو الذي أرغمه على السرقة، فقال القاضي للعجوز:

- سأحكم عليك بغرامة عشرة دولارات، وسأسددها نيابة عنك للخزينة؛ لأنك لا تملك ثمن الرغيف. بعدها لاحظ القاضي علامات التعجب على وجوه الحضور، فقال لهم:

- محكوم على كل منكم بدفع غرامة عشرة دولارات.

وافق الجميع على هذا الحكم، وجمعوا للعجوز ٤٨٠ دولارًا. وقبل أن تنتهي الجلسة، ألزم القاضي الدولة برعاية العجوز ماديًّا وصحيًّا في دار المسنين حتى مماته.

سعد القضاة بهذه القصة الطريفة، وسألوني عن رأيي في إعلان رجل مبارك المدعو أحمد عز عن ترشحه للبرلمان، فقلت لهم:

- بعيدًا عن موافقة أو رفض الجهات المختصة دخول هذا الرجل الانتخابات البرلمانية من عدمه، فإنني أؤكد أن عودة هذا النموذج للحياة السياسية، ومن على شاكلته من النظام الأسبق أو السابق، سيفتح الباب مجددًا لـ«مصمصة» دماء

المصريين.

واستطردت:

– فليس مقبولاً أو معقولاً أن نترك الفقير فقيرًا حتى يصل به الحال لسرقة رغيف الخبز، ثم يقف أمام القضاء متهمًا بالجرم المشهود!! بل المطلوب أن نوفر له الحياة الكريمة التي نص عليها الدستور في الفصل الأول، المادة «١٧» من الباب الثاني «المقومات الأساسية للمجتمع»، وأضفت:

– وفى كتابه «الطريق إلى جهنم» يقول المفكر الكبير الدكتور مصطفى محمود:

– مشكلة مصر لم تكن الفقر، بل في سوء الإدارة والمحسوبية والروتين وسيطرة غير الأكفاء على أكثر مواقع صنع القرار، وكذلك إهمال الأولويات وعدم الأخذ بأساليب العلم والعصر في المحاسبة والمتابعة.

وبانتهاء كلماتي كنا قد اقتربنا من مكان نزول القضاة الثلاثة في محطة سانت تريزا، حينها صافحوني بشكل جيد، وأكدوا لي أن مصر ستعود إلى مجدها وعزها عما قريب.

قلت لهم:

– أثق بحدوث ذلك طالما بها رجال وطنيون مثلكم.. انتهى.

كوكب الشرق

على مقعدين متجاورين بالمترو، جلستُ بصحبة أعز أصدقائي وأخي في الرضاعة المحاسب محمد عبد الغفار شعبان.

كان باديًا على وجهي وصوتي هم وحزن شديدان، لم يُخرجني من حالتي هذه سوى صوت كوكب الشرق ليطربنا من راديو صغير الحجم بيد مجند عشريني يجلس بالكرسي المقابل لنا.

كانت أم كلثوم تغني «أنا الشعب لا أعرف المستحيلا.. ولا أرتضى بالخلود بديلا .. بلادي مفتوحة كالسماء.. تضم الصديق وتمحو الدخيلا.. أنا الشعب شعب العلا والنضال.. أحب السلام أخوض القتال.. ومني الحقيقة مني الخيال.. وعندي الجمال.. وعندي جمال».

ومع صوتها الوطني- الملائكي، تذكرت هذه القامة الفنية العظيمة وموقفها من أزمتنا في أعقاب نكسة 5 يونيو 1967.

حينها أَقْسَمَتْ ألا يغفل لها جفن وشعب مصر يشعر بالهزيمة، فأحيت الحفلات على جبهة القتال؛ لرفع الروح المعنوية لخير أجناد الأرض، وتبرعت بكل مجوهراتها وريع حفلاتها داخل مصر وخارجها لصالح «المجهود الحربى».

ولم أنسَ مطلقا ما قاله عنها «أسطورة» فرنسا «شارل ديجول» حينما سمعها

تغنى في بلاده أغنية «فدائيون»: لقد لمست مع صوتها أحاسيسي وأحاسيس كل الفرنسيين جميعًا.

قلت لصديق عمري:

– لقد وقفت أم كلثوم كالمارد جنبًا إلى جنب بجوار الزعيم جمال عبد الناصر تتحدى الهزيمة المُرة وتُبشر بالانتصار القريب، تقدمت صفوف الرجال وجمعت التبرعات لصالح الشعب في أحلك ظروفه، أما فنانونا الذين تعدت أجورهم في مسلسلات رمضان الـ20 مليون جنيه، ورغم ذلك، لم نسمع عن تبرعاتهم ولو بـ«أتفه» المبالغ!!

سمعت حوارنا فتاة جامعية راقية جدًّا، اتضح فيما بعد أنها طالبة في أكاديمية الفنون، فقالت:

– ومن غير أم كلثوم يفعل ذلك؟ إنها امرأة بألف ألف رجل من أصحاب الكروش العفنة والضمائر الخربة والنفوس المريضة والقلوب الميتة والعقول المتآمرة على تراب هذا الوطن. الرئيس عبد الفتاح السيسي بدأ بنفسه، وتبرع بنصف ثروته ونصف راتبه لمصر، تبرع أيضًا بما تيسر له لصالح صندوق «تحيا مصر». أقسم بالله العظيم ثلاث مرات في اجتماعه برجال الأعمال أنه لو «يمتلك 100 مليار لتبرع بها لمصر».

وأضافت الفتاة:

– إن ما فعله الرئيس مجرد رسائل قوية لأثرياء مصر.

حينها قلت لصديقي إن «اجتماع الرئيس برجال الأعمال سيكشف عن مفاجآت سارة لصالح الوطن بلا شك».

مصمص صديقي شفتيه، وقال لي: «ابقى تعالى قابلني».

بعد مرور خمسة أيام على اجتماع الرئيس برجال الأعمال وعلى تشاؤم صديقي، لم أسمع عن التبرعات المأمولة من رجال الأعمال، حينها سألت نفسي:

– أين تبرعات سيدات الأعمال المصريات أيضًا في هذه الأزمة؟ ولماذا لم يدعهن الرئيس أو يعقد لهن مؤتمرًا خاصًّا بهن؟ هن يستطعن الوقوف خلف الرئيس ودعمه بكل ما يستطعن. أنا متأكد مما أقول. ألم يقفن معه في الانتخابات الرئاسية وقفات تاريخية؟.. إن الوقت يمر كالسيف، ووضع البلد الاقتصادي أصعب مما نتصور. يقيني أن نجاح الرئيس في مهامه والنهوض بمصرنا الحبيبة من كبوتها سيصبان في صالح رجال وسيدات الأعمال والفنانين كبقية شرائح المجتمع.

وبعد مرور أسبوع بالتمام والكمال من هذا النقاش جمعني بصديقي لقاء آخر داخل المترو أيضا، وتحدثنا في ذات الموضوع، وألقينا باللوم – كل اللوم – على تقاعس رجال الأعمال في هذه الأزمة الطاحنة.

ولأن صديقي يعشق الزعيم جمال عبد الناصر، رغم أنه لا ينتمي لأي تيار ناصري؛ وجدته يذكرني بما فعله «ناصر» بشركات المقاولات الكبرى، مثل: حسن علام وعثمان أحمد عثمان والعبد ومختار و...، بعد أن أنصف الفلاحين من الأثرياء بقانون الإصلاح الزراعي.

سألت صديقي:

– هل تقصد أن السيسي يمكنه أن يكرر ذات السيناريو مع رجال أعمال من نوعية: حسين سالم وعائلة ساويرس و....؟؟

فقال لي صديقي:

– ولِمَ لا؟ السيسي أمامه فرصة تاريخية لو أنه استغلها بالشكل الصحيح لعودة أموال الشعب من ناهبي الأراضي و....

وأضاف صديقي:

– الملياردير بيل جيتس – رجل الأعمال الأمريكي ومؤسس شركة «مايكروسوفت» – تبرع بثلاثة وثلاثين مليار دولار، وهي نصف ثروته، وعلى نهجه تبرع 92 مليارديرًا من أثرياء أمريكا وكندا وروسيا لصالح الأعمال الخيرية في بلادهم، والعديد من بلدان العالم الفقيرة، على الرغم من استقرار بلادهم الاقتصادي.

فقلت له:

– برأيك ماذا سيفعل الرئيس أكثر مما فعل؟

فقال لي:

– بصراحة نحتاج إلى معجزة أو حل عبقري لاستمالة بقية رجال وسيدات الأعمال والفنانين وكل أثرياء مصر؛ لدعم اقتصادنا المنهار، قبل أن نمد يدنا لصندوق «النكد» الدولي، فالأمل الآن معقود على هذه الطبقة، كما أن فقراء مصر ينتظرون الخير على يد الرئيس، رغم زيادة معاناتهم من تبعات رفع أسعار المواد البترولية مؤخرًا.

قلت لصديقي:

– صدقت والله. لقد يئس الشعب من رجال الأعمال، ورأيي أن نتبرع ولوبمبالغ زهيدة من جيوبنا «الفاضية» أصلاً، أو بساعتي عمل – مثل اليابانيين – لصالح الوطن؛ حتى ننقذه من براثن المؤامرة الأمريكية – الإسرائيلية – الأوروبية –التركية – الإيرانية – القطرية – الإخوانية التي عصفت بالعراق وليبيا واليمن وتونس والسودان وسوريا. الآن – يا مصريين – تبرعوا، وليس بعد.. انتهى.

ديك البرابر

بصوت انفعالي إلى حد ما شدني محتوى حديث ثنائي بين فتاتين جامعيتين في العقد الثاني من عمرهما، تجلسان بجواري داخل عربة مترو شبرا - الجيزة، وكان بصحبتهما شاب زميل لهما، يطغى على صوته وحركات جسده وإشارات يديه صفات الأنوثة.

ما سمعته منهم عبارة عن قصة خيالية - مسلية إلى حد ما، تُحكَى أحيانًا للعبرة والعظة في مواقف بعينها، كإنكار الجميل بين الناس أو الغدر أو ما شابه.

مظهر الفتاتين (اللبس والمكياج وبعض المفردات الإنجليزية التي تستخدمانها أثناء حديثهما بالعربية) وكذلك الفتى يؤكد أنهم من وسط «مرتاح ماديًا». تحدثوا عن الصفات الذميمة لزميلة لهم بالجامعة، لا همَّ لها – بحسب كلامهم – إلا نقل كل وأي شيء يسيء لثلاثتهم إلى بقية أفراد «الشلة»، ومن ثم وصفوها بـ«الثعبان» الذي يلدغ ما يتاح أمامه من فرائس لا تروق له.

قال الشاب بصوته «المايع»:

- البنت دي اللي اسمها (.....) فكرتني بحكاية من حكايات جدتي والدة مامي التي كانت تحكيها لي كل يوم قبل النوم.

نظرت الفتاتان لصديقهما متشوقتين لسماع الحكاية، فبدأ الشاب:

– يُحكَى أن سيدة «خيرة» عثرت على ثعبان صغير في حديقتها الجميلة، وكان الثعبان «الجبان» جائعًا «بردان»، فقررت السيدة أن تنقذه مما يعانيه، فأخذته إلى بيتها، وآوته، وبدأت تطعمه، حتى كبر الثعبان، وأخذ يتعود عليها، ينام بجانبها، يتبعها في كل مكان تذهب إليه و..... ويواصل:

– وفي يوم ما، كبر الثعبان وتوحش، وكان من الطبيعي – حسبما نسمعه من حكايات انتصار الخير على الشر – أن يصون هذا الثعبان معروف سيدته.

هنا قاطعته إحداهما، وقالت:

– شوف يا «.....» إحنا بنعطف على «.....» أدّ إيه، كنا بنشترى ليها أكل معانا، وبنعطيها ملابسنا اللي مش عاوزينها، ورغم ده كله، بتقعد تشتم علينا مع «الشلة». أفّ على دي بنت !!!

وتقول الثانية:

– ده أنا لسه عاطياها مذكرات وكتب ببلاش من كام يوم لما قالت لي إن ظروفها صعبة ومش هتقدر تشرتيهم يا حراااام. يبقى ده جزائي؟!.. صحيح خيرًا تعمل، شرًّا تلقى.

يقاطعهما الشاب، ويطلب منهما الإنصات، حتى يُكمل بقية قصته، فقال:

– ما حدث من الثعبان الغدار كان العكس تمامًا، ففي أحد الأيام توقَّفَ الثعبان اللعين عن الأكل دون سبب واضح، وحاولت معه السيدة الرحيمة أن يأكل أي شيء؛ ظنًّا منها أنه مريض، لكن الثعبان ظل على حاله عدة أيام ممتنعًا عن الطعام.. وكان يتبعها أينما ذهبت، وظل فترة على هذا الحال، بينما يزيد حزن السيدة، وتفكر في أي طريقة لإنقاذه.. ويتابع الشاب:

– وبعد عدة أسابيع قررت السيدة أن تذهب بثعبانها إلى الطبيب البيطري؛

ليعالجه من مرضه، فيُشفَى، فسألها الطبيب حين شاهد الثعبان يتحرك حولها:

- ما الأعراض التي تظهر عليه؟

حكت له السيدة كل ألاعيب ثعبانها، فسألها الطبيب مرة أخرى:

- تظنين أنه لا يستغني عنك، هذا صحيح؟!

- نعم هو متعلق بي جدًّا كما سبق وأكدت لك، بل ويتبعني أينما ذهبت، وينام بجانبي في السرير، بل وأحيانًا يلتف حولي طمعًا في الدفء و.....

نظر الطبيب إلى الثعبان نظرة الخبير بغدر اللئام، وأعاد عملية الفحص مرة واثنتين، حتى توصل لمكامن خطر الثعبان، ثم قال للسيدة الرحيمة:

- سيدتي، إن ثعبانك ليس مريضًا، إنه فقط يحاول أن يجوع فترة طويلة حتى يستطيع التهامك، وكونه يلتف حولك كل ليلة، فهذا ليس حبًّا فيك بالطبع، لكنه يحاول أن يقيس حجمك بحجمه حتى تستوعبك معدته. إنه – ببساطة شديدة – يعد العدة للهجوم عليك في الوقت المناسب، فخذي حذرك وتخلصي منه سريعًا.

وبمجرد انتهاء الشاب من حكايته، علا صوت الفتاتين بالتصفيق الباهت، وكانتا سعيدتين للغاية بتلك «النميمة» التي نالت من زميلة لهم!!.. انتهى.

المجـــــذوب

صعد رجل في العقد السادس من عمره عربة المترو من محطة عزبة النخل - تجاه حلوان، يبدو عليه الصلاح، كلماته مرتبة، يرتدى عمامة خضراء وجلبابًا أبيض يعلوه وشاح أخضر، يمسك بيده عصا سميكة من الغاب الرومي. وقف برهة من الزمن يتطلع بنظرة حانية إلى ركاب العربة. بعد حوالي 5 دقائق رفع يده وبصره إلى السماء متمتمًا بكلمات لم أفهم منها أي شيء. فجأة ارتفع صوته قائلاً:

- صلوا على رسول الله.. حيييييي... صلوا على المصطفى.. حيييييييي.. صلوا على خير ولد آدم.. حيييييي.. صلوا على من سيشفع لكم «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».. حيييي.. حيييي.. حيييي.

جميع الركاب رددوا خلفه باستثناء سيدة واحدة:

- اللهم صلِّ على الحبيب محمد النبي الأمي الأمين.

طلب الرجل من الركاب أن يصلوا مرة ثانية وثالثة على النبي، فرددوا:

- اللهم صلِّ وسلم عليه.

بعد ذلك أشار الرجل إلى امرأة في الأربعين من عمرها ترتدى صليبًا في رقبتها، ووجه إليها سؤالاً خبيثًا:

- هل أنت مسيحية يا سيدتي؟

فأجابت السيدة:

- نعم، وقد لاحظت نظراتك المُريبة إلى الصليب الموجود برقبتي!

اعتذر الرجل اعتذارًا شديدًا بعدما لامه الركاب على تدخله في شؤون الآخرين، ومع ذلك واصل حديثه بعد هذا الاعتذار قائلاً:

- أحبابي أحباب رسول الله (صلى الله عليه وسلم).. بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا، فأنا بمشيئة الله تعالى من أحباب ولي من أولياء الله، سيدنا إبراهيم الدسوقي (رضى الله عنه) ولا أريد منكم سوى الاقتداء بأوراده العظيمة؛ حتى نخرج من هذه الدنيا بسلام.

هنا استوقفته سيدة خمسينية مثقفة جدا، وهاجمته هجومًا عنيفًا، فرد عليها المجذوب بأدب، قائلاً:

- أحترم كل من يختلف معي في الرأي، وخصوصًا النساء.

لكن السيدة المثقفة رمقته بنظرة سخرية، ولم تأبَهْ لهذا الاعتذار، وتركته يواصل حديثه، فقال المجزوب:

- لسيدي إبراهيم الدسوقي (رضي الله عنه) حزبان جليلان يقرآن صباحًا ومساءً، وهما الحزب الكبير والحزب الصغير، مكتوبان في تلك الورقة التي سأوزعها عليكم، لكن قبل أن أوزعها أستحلفكم بالله أن تعملوا بما فيها إكرامًا لسيدي إبراهيم.

بمجرد أن التقطت الورقة من يد المجذوب، وجدت فيها الآتي:

- الحـــزب الكبيـــر:

- ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ و.....

- أما الحِزْبُ الْصَّغِيرُ:

- بِسْمِ الإلهِ الخَالِقِ الأكبَر وَهَو حِرْزٌ مَانِع ممّا أَخَافُ وَأَحْذرُ، لا قُدْرَةَ لِمخْلوقٍ مَعَ قُدْرةَ الخَالِقُ يُلجِمَهُ بِلِجَامِ قُدْرِتِهِ و.....

بمجرد انتهاء المجذوب من توزيع وُرَيْقاتِه على الركاب، إذا به ينزل من عربة المترو بطريقة رياضية مريبة جدًّا، لا تنم أبدًا عن كونه مجذوبًا على الإطلاق، فقد لاحظ الركاب أنه أمهر من لاعب السيرك في حركاته، بل وأشد لياقة من شاب عشريني في حيويته!!

ومن سوء حظه العاثر أن أحد الركاب – على ما يبدو – كان قد أبلغ عنه شرطة المحطة، وعندما فُتح باب العربة، وإذ بأمين شرطة يقول له:

- تعالى.. تعالى.. عذبتنا الله يعذبك، «محمد بك» قالب عليك الدنيا !!.. انتهى.

المُختـــــــل

تليفوني.. تليفوني.. حراميـي.. حراميـي، تلـك الكلمـات أصـدرها عجـوز يتعدى السبعين عامًا بعدما تحرك المترو بدقائق من محطـة أم المصـريين باتجـاه شبرا.

وخلال ثوانٍ معدودة، نهض ركاب العربة يضربون بأيديهم صاج العربـة حتـى توقف المترو عن الحركة.

وقبل أن يخرج اللص (شاب ثلاثيني يبدو من ملامحه أنه مُدمن)، وإذا بمجنـد من قواتنا المسلحة يقفز من عربة المترو باتجاه اللص، فيمسك بـه، وينهـال عليـه ضربًا بعد أن استحوذ على هاتف العجوز منه.

معظم ركاب عربة المترو إلا القليل منهم أذاقوا اللص ضربات موجعـة، حتـى إن سيدة تتخطى الستين عاما خلعت حذاءها، وضـربته عـلى رأسـه بغـيظ شـديد، وأخذت تسبه وتلعنه بأفظع الشتائم، اتضح فيما بعد أنها زوجة العجوز.

حاول عدد من الركاب تخليص اللص من يد المجنـد؛ حتـى يـذهب إلى حـال سبيله، بعدما نال أكثر مما يستحق من الركاب، إلا أن العجوز وزوجته أصـرا عـلى تسليمه لشرطة المحطة.

حضر عدد من أمناء الشرطة بصحبة ضابط برتبة ملازم أول، وتسلموا اللص من المجند، وكانت المفاجأة!!

الضابط وأمناء الشرطة أكدوا أن اللص مختل عقليًّا، وأهله يبحثون عنه، ويملؤون شوارع المنطقة وضواحيها بصوره؛ لعلهم يعثرون عليه.

وقف العجوز وزوجته بعد سماعهما كلام رجال الأمن في حالة يُرثَى لها، وهكذا بقية الركاب!!

فكان المشهد الأخير:

كل من مد يده على الشاب قدم له اعتذارًا مشفوعًا بالدعاء أن يسامحهم الله، ويخفف عن اللص المختل محنته.. انتهى.

مملكتهـــــن

جلست بالمترو ، أقرأ بعض الصحف الرسمية والخاصة، فوقعت عيناي على تصنيف جميل لنوعية المشاكل التي نفاجأ بها داخل عربات السيدات.

تلك العربات – لمن يُريد أن يعرف – لها طابع أخص من الخصوصية، أو إن شئنا التوضيح، يمكن القول بأنها من الأسرار شبه العسكرية، خاصة وأن بعضهن يعتبرنها كمسكن بديل يحتمين به من «قرف» الميكروباصات ومضايقات سائقي التاكسيات والتكاتك، وقلة نادرة من الركاب الذين يفتقدون الحياء والرجولة.

تبدأ مشاكل النساء داخل عرباتهن، أحيانًا بمشادة كلامية.. وتنتهى بـ «خناقة»، ربما تصل إلى حد التشابك بالأيدي الناعمة، التي تتحول بقدرة قادر بعد شد وجذب إلى أيدٍ خشنة، وتصنف تلك المشاكل إلى أربعة أنواع، تكون غالبًا كالتالي:

النوع الأول:

– «خناقة» لها طابع مميز مع الباعة الجائلين، وهى النوع الأكثر انتشارًا في المترو، فبالرغم من الرغبة الحميمية للنساء في الشراء والتعرف على السلع المعروضة للبيع، إلا أنهن يفضلن الشراء بحسب خبرتهن لجودة المنتج وسعره المناسب معًا، فضلا عن وجودهن في حالة من «الأريحية» تجعلهن يدفعن ثمن

السلعة وهن مرتاحات البال ومطمئنات.. كل ذلك يجب أن يتم بهدوء من جانب البائع، وإلا تبدأ المشاجرة مع البائع، وتعلو الأصوات كنوع من «الفرصة» لتخريج معظمهن كبتهن.

النوع الثاني:

- «خناقة» مع المتسولين، خاصة إن كانوا أطفالاً يقومون بافتعال حركات بهلوانية، مثل القفز على الكراسي أثناء جلوس النساء، أو فتح أبواب المترو أثناء سيره، وهو الأمر الذي يستفز بعضهن، فتعلو الأصوات الممزوجة بالسباب للطفل وأهله، وهنا تبدو السيدة في هذا المشهد بصورة غير لائقة على الإطلاق، إذا كان من السهل عليها، أو عليهن، إبلاغ أمن أقرب محطة لإنهاء مثل هذه المشاكل دون اللجوء إلى افتعال مشاكل من لا شيء.

النوع الثالث:

- «خناقة» مع أي «متطفل» يحاول – سهوًا أو عمدًا – أن يصعد عربة السيدات، فهن – كما قلنا من قبل - يعتقدن أن هذه النوع من الرجال أو الشباب «ناقص تربية»، ومن ثم يقمن هن بمهمة الأمن والأسرة معًا، وذلك عندما تمتد أيديهن، وأحيانًا أحذيتهن على رأس أو جسد المتطفل، و«هات يا ضرب».

النوع الرابع:

- «خناقة» مع بعضهن بعضًا، لعدة أسباب، أهمها: التزاحم أثناء خروجهن ودخولهن من وإلى عربات المترو، أو عند إثارة بعض المواضيع السياسية أو الدينية، وذلك حسب اختلاف الثقافات والاتجاهات. وفي هذه الحالة تكون «الخناقة» بطعم الواقع الذي نحياه، فهناك من تلعن الظروف الاقتصادية بسبب الغلاء وقلة الدخل، وهناك من تبرر ارتفاع الأسعار كإجراء حتمي لاتجاه الدولة

في برنامج الإصلاح الاقتصادي، وهناك من تتعاطف مع «الإرهابية»، وترى أن الدولة تعجلت في طردها من حكم مصر بعد عام أسود حكموا فيه الشعب بالإرهاب والقتل والتكفير والتفجير، وهناك من تهاجمها بضراوة على تلك الآراء بعد أن تتهمها بالعمالة والخيانة و....!!.. انتهى.

الأرملتان.. المتحرش

المشهد الأول:

- في محطة مترو السادات التاسعة صباحًا استوقفني صوت نسائي يردح بـ«الحيانى» كما يقولون. وقفت لأعرف نوع المشكلة، وإذ بسيدة بدينة، في العقد الخامس من عمرها، تضرب رجلاً في مثل عمرها بـ «الشبشب»!!

ومن باب الفضول أردت معرفة تفاصيل الحكاية؛ حتى أسجلها إن بدت مثيرة، فعرفت أن هذا «السَّئيل» حاول التحرش بها أثناء صعودها داخل المترو، مستغلاً بذلك حركة زحام الركاب في عمليتي: الخروج والدخول.

وحتى يكتمل المشهد، رأيت شابًا لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره يصفع المتحرش صفعة، كادت تطيح به خارج عربة المترو، بعد أن دخلها. علمت فيما بعد أن هذا الشاب ابن لتلك السيدة، عندئذ حاول المتحرش أن «يقفز» من العربة قبل أن يناله المزيد من الضرب والتجريح، لكنه لم ينجح إلا بعد 5 دقائق، هي المسافة بين محطتي السادات وسعد زغلول.

وخلال هذه الفترة الزمنية البسيطة نال المتحرش عددًا من الصفعات من بقية الركاب؛ ما يجعله يفكر ألف مرة ومرة قبل أن ينوي - مجرد النية - ارتكاب هذا

الفعل المشين مرة أخرى.

المشهد الثاني:

- لسيدة صغيرة السن تجلس وأمامها عربة أطفال، بداخلها طفلة صغيرة يبدو عليها الإرهاق، تسمع أغنية شعبية حزينة من هاتفها المحمول بعنوان «الدنيا ماشية بضهرها داست عليا».. هنا تتبادل مجموعة من النساء النظر إليها بصمت المتعاطفين، بينما تتحرك شابة صغيرة يبدو عليها حسن الحال معيشيًّا؛ لتخرج من حقيبتها قطعة بسكويت للطفلة.

تشكرها الأمّ الصغيرة بامتنان زائد، بعد أن قبلت طفلتها الهدية بابتسامة تساوي الدنيا وما فيها، وعندها تتشجّع إحدى السيدات (متوسطة العمر والحال) في سؤالها عن سر حزنها، فتردّ الأم الصغيرة قائلة:

- وإيه في الدنيا ما يتعبش بس يا ست الكل؟!

وتبدأ الأم الصغيرة في سرد مأساتها عن موت زوجها شابًّا بمرض مفاجئ في الصدر، جاء غالبًا نتيجة عمله في مصنع سيئ السمعة البيئية، وتلا موته حصارٌ تامّ من أسرته عليها كشرط لبقائها مع أولادها الثلاثة.

وتواصل الأم الصغيرة حديثها كيف أصبحت طَوالَ الوقت بموقف المتهمة و... والتهديد المفتوح بسحب الأطفال من حضنها.

لم تتدارك هذه الأم دموعها وهي تنظر إلى طفلتها الصغيرة، فتقول:

- وهو حدّ منهم يقدر ياخد باله منك لو أنا اتجوزت راجل تاني زي ما بيقولوا؟!.. وازاي بس اتجوز، والمرض الخبيث بياكل في جسمك أكل، ده انت يا ضي عيني خلاص قربتي تقابلي ربك، وتموتيني بعدك.

هنا أوقفتها سيدة كبيرة في العمر، لتوبّخها:

– ما تقوليش كده يا ابنتي. ادعي ربك لها، وان شاء الله تعالى البت دي هتعيش وتبقى عروسة.

يعود الحضور النسائي إلى تبادل النظرات بصمت؛ لينهض عدد من الأيادي النسائية الحنونة في الـ«طبطبة» على كتف ورأس الأم الصغيرة وابنتها المريضة.

المشهد الثالث:

– خمسينية تحكي قصتها بحزن عن حجود أبنائها، وتتحسر على عمرها الذي ضاع عليهم، وتسأل نفسها بصوت مرتفع:

– كيف مرّت بي السنون سريعًا لأربى أطفالي، وقد أصبحوا رجالاً ثم يتنكرون لي بهذا الشكل؟!

وهنا يتدخل سبعينيٌّ كان يجلس بالقرب منها، وتظهر على وجهه علامات الوقار والصلاح، ومن ملابسه يتضح مستوى ثقافته الرفيع وثرائه، فيقول لها:

– أستحلفك بالله يا ابنتي أن تستغفري ربك، وتحمديه وتشكريه على نعمته في نفسك وولدك.

نظرت إليه السيدة نظرة إكبار وإجلال، بعدما تَعرَّفا على بعضهما، حيث كان هذا العجوز مديرًا للمدرسة الثانوية التي تعمل بها تلك السيدة مدرسة لمادة اللغة الفرنسية، لحظتها نهض الرجل والسيدة من مكانهما، وتصافحا بطريقة أسعدت الركاب.. انتهى.

آباء ... وأعداء

بعد أن حكمت عليَّ الظروف، وجلست – صدفة – بجوار زوج وزوجته وابنهما الشاب الجامعي المُغرَّر به من جماعات الغدر والخيانة بخط المترو الأول من رمسيس إلى المرج.

استفزتني جدًّا كلمات الشاب مع والديه عن جريمة مسجد الروضة بالعريش.

في الحقيقة حاول الأب والأم إقناع ابنهما بإدانة هؤلاء المجرمين، الذين ارتكبوا هذه الجريمة غير الإنسانية وغير الأخلاقية.

لكن الشاب لم يقتنع بكلام والديه.. وظل متمسكًا برأيه، مدعيا بأن «الدواعش مجاهدون يقتصون لإخوانهم الذين قُتلوا على أيدي الجيش والشرطة في «رابعة والنهضة وسيناء و...»!!

حينها استأذنت الأبوين أن أتدخل في الحديث، فلم يمانعا.. فطرحت على الشاب سؤالًا:

– هل الأديان السماوية الثلاثة تأمر بقتل الأبرياء؟

باغتني الشاب بهجوم لفظي غير مبرر من نوعية:

– «هو فيه حد طلب من حضرتك تتدخل في حوار خاص جدًّا بين أفراد

أسرة»؟!

قلت له:

- أنت مثل ابني، وقد استأذنت والديك في الحديث معك.

وقبل أن أستكمل كلامي مع الشاب، قال لي:

- من فضلك انتهى الكلام معك.

بعد ذلك ترك مكانه، وظل واقفًا طَوالَ الطريق على باب عربة المترو، تارة ينظر إلى السماء، وأخرى ينظر إليَّ وإلى ولدَّيه نظرات عداء غريبة.

مثل هذه النوعية من فلذات أكبادنا ومن يسقونهم هذه السموم تجدهم لا يكلُّون ولا يملُّون من سرد مساوئ الفترة الحالية مع تغليظ الأيمان بأنهم ليسوا إخوانًا ولا صلة لهم بالإخوان لا من قريب أو بعيد.. وأن كل ما يهمهم – كمصريين – هو مصلحة مصر ليس إلا!!

تسمعهم يحدثونك – مثلاً – عن ارتفاع الأسعار، وعن الفساد المستشري هنا وهناك، وعن المشاريع القومية العملاقة، بأنها مشاريع «وهمية»!!

وعن إنجازات الجماعات الإرهابية مثل «داعش» و«أنصار بيت المقدس» ضد دول المنطقة بفخر وامتنان.

وفي ذات الوقت يصفون لك مستقبل مصر بأنه «مظلم»، دون أن يذكروا الإنجازات التي تمت وتتم على أرض الواقع منذ ثورة ٣٠ يونيو المجيدة وحتى الآن، كما ألاحظ في كلامهم تشابهًا وتنسيقًا غريبين في الصيغة والأسلوب، وكأن من يُلقنهم هذا العبث هو شخص أو جماعة بعينها!!

عندئذ سألت نفسي:

– لماذا يكرهون وطنهم إلى هذه الدرجة؟ ومن الذى زرع في عقولهم وبث في آذانهم هذه السموم؟ وهل حقًّا مثل هؤلاء يخافون على مصر وعلى استقرارها، أم أنهم يريدونها خرابًا ودمارًا تنعق فيها الغربان والبوم؛ لتكون بعد ذلك مأوى لمصاصي الدماء وأمراء الحروب من تُجار الدين؟

وجاءتني الإجابة عندما تذكرت كلام محمد مهدى عاكف، المرشد السابق لجماعة الإخوان، عندما قال:

– «طُزّ في مصر.. وأبو مصر، واللي في مصر».

ما سبق كان قليلاً من كثير في أدبيات «الإخوان» عن الوطن الغالي.

– يعني بصريح العبارة.. مصر، شعبًا وأرضًا، لا تهم الجماعة ولا محبيها أومشتاقيها وعبيدها وخُدامها في شيء، لا من قريب ولا من بعيد.. انتهى.

احـــــــترام
...

أراد رب أسرة مُحترمة أن يُرفِّـه عـن زوجتـه وأولاده بمشـاهدة أحـد الأفـلام المعروضة في سينما بوسط البلد.

تـرك فرصـة الاختيـار لابنـه ذي الــ 18 ربيعًـا دون زوجتـه الوقـورة، وابنتيـه الجامعيتين.

وقع اختيار الشاب على فيلم بعينه «مـن بتـوع اليـومين دول». قطعـوا التـذاكر، ودخلوا إلى صالة العرض.

بدأ الفيلم بلقطات تحتوى على مشاهد بلطجة ورقص مقزز، تشبه إلى حد بعيـد أفلام البورنو!!

لم يتمالك الرجل نفسه من «قرف» ما شاهده مع أفراد أسرته.

ترك الفيلم وأسرته بعد مرور وقت قصير جدًّا منـه، وخـرج ناقمًـا عـلى منتجـه ومخرجه وممثليه والجهة التي وافقت على عرضه.

هذا باختصار شديد ما سمعته في المترو بين أفراد أسرة محترمة، كانوا يجلسون بجواري في رحلة استمرت حوالي نصف ساعة وخمـس دقـائق، بدايـة مـن محطـة السادات، وحتى محطة المرج الجديدة.

بصراحة صممت على مشاهدة هذا الفيلم؛ لأتعرف على الحالة المزرية التي وصلت إليها درامانا على يد سماسرة الفن، وبتمويل من أفراد وجهات ودُوَيْلات مشبوهة.

وبالفعل ذهبت لذات السينما لأُشاهد هذا العمل. تابعته باهتمام شديد منذ اللحظة الأولى وحتى النهاية، وتأكدت أن رب هذه الأسرة كان على حق في كل ما سمعته منه.

فالفيلم يحتوي على مشاهد خليعة، لايمكن لأى أسرة مصرية أو حتى عربية أن تجازف وتشاهده.

فعلى سبيل المثال لا الحصر يُظهر «بنات الليل» و«الساقطات» و«تجار المخدرات والأسلحة».

ثم «البلطجي» و«الديوس» و«الخائن» و«المنتقم» و«القواد» و.... وكأن مصر لا يوجد فيها سيدات محترمات يعملن في أرقى المناصب، بداية من عالمة الذرة، مرورًا بالقاضية، وختامًا بالوزيرة والمحافظة، أو بشبابنا الناجح والمكافح والشريف داخل مصر وخارجها!!

عندئذٍ تذكرت نصائح أساتذتنا عندما قالوا إن «أهم ما يميز الكاتب الوطني عن الأرْزُقي هو العمل على تواصل الأجيال مع بعضها بعضًا».. مُحذرين في ذات الوقت من أن «انحراف الكاتب عن هذا الهدف السامي سيؤدى ـــ حتمًا ـــ إلى ضياع مجتمعه وطمس هويته والقضاء على لغته وثقافته».

وحتى لايكون كلامي مجرد حبر على ورق؛ فإنني أنصح بمشاهدة الأفلام العالمية للسينما الهوليودية والبوليودية؛ لنعرف الفرق بين الدراما التي تبني وتسهم في التقدم والارتقاء، والدراما التي تهدم كل هذه المعاني الجميلة بدافع العمالة أو الخيانة أو لمتاع دنيوي زائل!!

وخيراً فعل الرئيس عبد الفتاح السيسي عندما انتبه لهذه الكارثة، ووجه مستشاريه في الأمن القومي، والأمن العام، بعقد اجتماع مع صناع السينما المصرية؛ وذلك لمناقشة تدهور قوة مصر الناعمة، على يد معدومي الذوق والضمير، هؤلاء الذين أسهموا بشكل أو بآخر، في تغييب وعي أعداد كبيرة من شباب مصر، وذلك بعد أن سلبوهم هويتهم، وأفقدوهم وطنيتهم، وجعلوا منهم أعداء لبلدهم، يُباعون ويُشتَرون لمن يدفع!!

ما سبق يجعلني أذكِّر نفسى وغيرى بأن الدراما المصرية منذ مائة عام، ولوقت قصير مضى، كانت أحد أهم روافد اقتصادنا، بل وسببًا رئيسيًّا في انتصار قضايانا العادلة، وانتشار ثقافتنا وعاداتنا وقيمنا.

أما في الفترة الأخيرة، فقد تعرضت قوتنا الناعمة لمؤامرة خسيسة لا داعٍ للحديث عنها الآن، وسأكتفى بالقول:

– إن «من راهنوا على تقزيم دور الدراما المصرية لصالح دراما دولة عربية بعينها قد خسروا الرهان من «بدرى».. لماذا؟ لأن إنتاجنا من المسلسلات تَعدَّى في عام واحد السبعين مسلسلاً. أما الدولة الشقيقة المعنية ــ أنجاها الله من محنتها – فلم تنتج في نفس العام سوى ستة مسلسلات فقط معظمها تاريخي.

نقيس على ذلك بقية الأعمال الفنية من مسرح وغناء وأفلام، وقد استمرت هذه المؤامرة الدنيئة لفترة أربع سنوات تقريبًاأنُ ثم توقفت لأسباب معروفة للجميع.

ولأن مصر هي فعلاً «أم الدنيا»، ولأنها قلب العروبة والإسلام النابض، ولأن بقاءها يعنى بقاء العرب، وزوالها ــ لا قدر الله ــ يعنى زوال العرب؛ فقد انتبه المتآمرون لذلك، اللهم إلا قلة فاسدة ومُفسدة من أبناء جلدتنا، لعظمة وقيمة وقامة مصر بفنها وثقافتها وجيشها في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية، في ظل الموجة الاستعمارية الخبيثة التي سُمِّيَت بـ«الربيع العربي».

ولمثل هذه القلة الحاقدة أقول:

- توقفوا ــ الآن وليس بعد ــ عن إنتاج مثل هذه الأعمال التي زلزلت أركان الدولة، وضربت قوتها الناعمة في مقتل.. توقفوا عن هذه «المسخرة»؛ فمصر أرقى وأعظم من أن تجسدوها في علاقات محرمة وشاذة و«شوية صيع وعواطلية وقوادين وساقطات».. توقفوا أيها العملاء، وتبرءوا من زلاتكم الخلقية التي أساءت لمصر وفنها وشعبها العريق.

وبهذه المناسبة أناشد الجهات الرقابية والأمنية في مصرنا الحبيبة أن تتخذ الإجراءات اللازمة لمنع هذا الإسفاف بدعوى «الحرية والإبداع»، فالحرية الحقيقية أو المسئولة ــ كما يسميها خبراء الإعلام ــ هي الحفاظ على الذوق العام من السقوط في براثن الرزيلة والعمالة والخيانة. أما الإبداع فيعنى في قاموس الدول صاحبة التاريخ العريق الارتقاء بالسلوك البشرى وليس انحرافه.. انتهى.

ثرثرة هوانم

على مدار نصف ساعة تقريبًا، هي فترة عُطل فني بالخط الثاني للمترو من شبرا إلى المنيب، لفت انتباهي حديث سيدتين، يبدو للوهلة الأولى أنهما صديقتان أو قريبتان، كما أنهما مثقفتان جدًّا.

الأولى خمسينية حسنة المظهر، متحررة في حديثها وملبسها، تتحدث الفصحي بطلاقة، والثانية أربعينية، لا تختلف عن الأولى في شيء، سوى أنها تتحدث العامية المُنمَّقة، وكلتاهما كانتا ناقمتين على الفساد الإداري المنتشر في معظم مؤسسات الدولة.

الحديث بين السيدتين جاء تعقيبًا على خبر منشور في جريدة الأهرام نقلاً عن صحيفة «تشاينا دايلي» لأحد القيادات الصينية.

ملخص تفاصيل الخبر يوضح أن «70 مسئولاً صينيًّا قاموا بزيارة مسئولين محكوم عليهم بالسجن في قضايا فساد عبارة عن رشوة وسرقة وإساءة استخدام سلطة، الأمر الذى جعل من الزيارة تذكيرًا واضحًا بعدم سلوكهم هذا الطريق».

ولفت الخبر إلى أن «الزائرين قضوا يومًا كاملاً في السجن؛ على سبيل التعلم والعظة»، وأن «سبب تعليق صور التحقيقات مع الفاسدين الصينيين على جدران السجن لكى يراها الزائرون».

فيما أوضحت «اللجنة المركزية لبحث الانضباط الحكومي الصيني أن «هذه الزيارة تم تنظيمها لتنبيه المسئولين بأن عليهم أن يكونوا مدركين لعواقب الأخطار المتعلقة بالفساد».

تسأل الأربعينية صديقتها:

– طيب يا ترى يا هل ترى: هل لدينا النية والعزيمة لتطبيق التجربة الصينية في مصر؟ هذا على اعتبار أن رئيس الجمهورية يصدر، من خلال خطته الطموحة في القضاء على الفساد، قرارًا بتشكيل لجنة مماثلة لبحث الانضباط الحكومي؟!

وتكمل:

– طيب، ولو تشكلت هذه اللجنة، وأرادت أن تطبق التجربة الصينية على عدد من الوزراء والمحافظين والمسئولين الكبار، وترسلهم لزيارة ما تَبقَّى في السجون من أركان نظام مبارك، ومن على شاكلتهم لقضاء يوم واحد في السجن للاطلاع على صحائف جرائمهم التي ارتكبوها ضد الشعب كنوع من الردع لكل من تسول له نفسه بأن يرتكب نفس الجُرم، فهل سيقبلون؟!

وقبل أن تسترسل الأربعينية في أسئلتها اللاذعة، عاجلتها الخمسينية بإجابات قاطعة:

– أشك في ذلك؛ لأن أغلب مسئولينا من فئة وكيل وزارة يتعاملون مع المنصب وكأنه «غنيمة» وفرصة لا تُعوَّض للنهب والسرقة و«تمشية» الحال والانتقام، وتصفية الحسابات من الخصوم في بعض الأحيان.. ومن ثم يتعاملون مع المواطن وكأنه «شحاذ» وليس صاحب حق، ينسون دائمًا أو يتناسون – ربما – أنهم جاءوا لمناصبهم؛ من أجل خدمة المواطن وليس الاستعلاء عليه.

وأردفت:

– كما أن هذه النوعية من المسئولين تتجاهل تمامًا أن مرجعها إلى من لا يغفل

ولا ينام.. كما نلاحظ عليهم عدم الاكتراث أو الخشية من الأجهزة الرقابية أو الجهات السيادية، ومن ثم فلا رقيب عليهم سوى ضمائرهم فقط!!

تبتسم الأربعينية بعد أن تمصمص شفتيها:

– طيب يا ستي، خليني أتكلم بصراحة، الأجهزة الرقابية عندنا مغلولة اليد، بداية من الرقابة الإدارية والنيابة الإدارية، مرورًا بالجهاز المركزي للمحاسبات، وختامًا بالأموال العامة، و.... وهذا يجعلني وغيري ممن يخافون على هذا الوطن أن نلفت انتباه السيد الرئيس إلى أنه إن «لم يتصدَّ شخصيًّا – من خلال صلاحياته – لهذا «العفن»، فلا أمل في أي شيء، فقديمًا قالوا: «ضعف الحائط يُغري اللصوص».

ترد الخمسينية بابتسامة مشابهة لصديقتها، بعد أن تومئ برأسها بالموافقة على طرح صديقتها:

– لديَّ اقتراح متواضع، وأتمنى لو يتبناه الإعلام؛ إنقاذًا للوضع السيئ الذي وصلنا إليه.

تعاجلها الأربعينية بسخرية تنمُّ عن دهاء وعمق صداقتهما في الوقت ذاته:

– هاتي ما عندك يا أم العُرِّيف.

ترد الخمسينية بلغة عربية فصحى وثقة زائدة بالنفس:

– بصرف النظر عن «سخافتك» التي تعودت وغيري عليها، لكن من الضرورة جدًّا وضع لوحة إرشادية في مكتب كل موظف – صغر حجمه أو كبر – نذكره بحقوقه وواجباته وكيفية تعامله مع المواطن.. فضلاً عن العواقب التي يمكن أن تواجهه إذا أخلَّ بواجبات عمله، وكذلك وضع البيانات اللازمة للجهات التي يمكن أن يلجأ إليها المواطن إذا تعرض لظلم أو أي نوع من التعنت أو الابتزاز من الموظف.. على أن تكون هناك جهات مختصة للتحقيق الفوري في مثل هذه

الشكاوى؛ لضمان جدية التجربة.

تبتسم الأربعينية ابتسامة يملؤها الود والمحبة لصديقتها:

- حبيبتي، والله باضحك معاك، لكن بكل صراحة أنا أيضًا أتمنى أن تجد نصيحتك هذه آذانًا مُصغية من صُناع القرار؛ حتى نخفف من ضجر وسخط المواطن الذي يقرأ ويسمع يوميًّا عن فساد العديد من مسئولينا هنا وهناك في العديد من المواقع الحكومية والخاصة.

إلى هنا انتهى حوار السيدتين، ولم يتحرك المترو إلا بعد ذلك بحوالي خمس دقائق، لحظتها استحضرت بعض المعلومات التي تؤكد أن الصينين تعلموا منا قديمًا، واليوم منهم نتعلم.

الأمة الصينية التي صنعت مجدها وسط ظروف قاسية لا تحتمل التقاعس أو التراجع أو التراخي، أمة قالت ففعلت، أمة خططت فنفذت، أمة رفعت شعارها الرائع «التصدير أو الموت» منذ منتصف الثمانينيات، فكان لها ما أرادت.

أمة استطاعت أن تنقذ نفسها من مستقبل مظلم، بعد أن وصل عدد سكانها إلى مليار وربع المليار نسمة تقريبًا، أمة غزت بتجارتها وصناعتها وسياستها وقوتها كل دول العالم، أمة فرضت احترامها على غيرها بالعمل والإنتاج.

فهل يمكن لنا بعد قيامنا بثورتين عظيمتين أن نحذو حذوها؟!

المنطق والتاريخ يقولان نعم ممكن؛ لأننا أهل للتقدم والرقى والرفاهية، نعم ممكن أن نتفوق على الصينيين وغيرهم وفى وقت قياسي، إذا سلكنا نفس طريقهم في محاربة اللصوص، وقضينا على الفساد والمفسدين مثلما فعلوا.. انتهى.

غـــرام أطفال

لم ينتبها من غرامهما إلا بعد أن فوجئا بأمين شرطة يمسك بهما، ويطلب منهما اصطحابه إلى ضابط أمن محطة الأوبرا!!

فتاة وشاب في المرحلة الإعدادية، نسيا أنفسهما، وهاما حبًّا وعشقًا في بعضهما، فأمسك الشاب يد الفتاة يقبلها مرة، ومرة أخرى يُملس بيده على شعرها دون أن ينتبه بأن كاميرا المحطة ترصدهما.

ولأن عملي قريب من هذه المحطة، كنت دائمًا أستقل المترو منها، فشاهدت الموقف، وتعجبت جدًّا من جرأتهما.

وقبل أن يذهبا إلى غرفة الضابط، فهمت الموضوع من أمين الشرطة، واستحلفته بالله أن يتركهما يذهبان إلى حال سبيلهما؛ نظرا لصغر عمرهما.

وافق الأمين، على شرط أن أستسمح ضابط الأمن، وبالفعل ذهبت إلى الضابط بصحبة الأمين والشاب والفتاة، واستسمحته، وكان كريم الخلق إلى حد بعيد، ومن ثم غادرت الفتاة والشاب المحطة، بعد أن أقسما بالله ألا يفعلا فعلتهما «المشينة» مرة أخرى.. انتهى.

الضحيـــــة

ثلاثيني متشرد، بوجهه ما لا يقل عن أربع «بشلات».. مـد يـده بخفـة متناهيـة داخل جيب بنطلون أحد الركاب لحظة اقتراب المترو من محطة رمسيس، وسرق منه المحفظة.

وخلال ثوانٍ معدودة، انتبهنا لوجود ضابط شرطة ومعه مُخبر، يلقيـان القـبض على المتشرد، بعد أن أخرجا المحفظة من جيبه، وأعاداها للضحية.

حاول اللص مقاومة الضابط والمخبر، فانهالا عليه ضـربًا، واقتـاداه بمسـاعدة الركاب إلى مقر غرفة أمن المحطة.

داخل غرفة الأمن أكد له الضابط ارتيابه في نظراته وتصرفاته للركاب؛ لذا تابعه بالكاميرا حتى لحظة إلقاء القبض عليه.. انتهى.

الخاتمة

عزيزي القارئ..

انتهى الكتاب، لكن مواقف وقصص وحكايات مترو الأنفاق لا تنتهي، ويبقى المترو – بحق – عالمًا فيه من شحنات الإبداع الأدبي والثقافي والإنساني الكثير، فاحرص وأنت بداخله أن تتصفح وجوه من حولك.. فسترى قصصًا ممتعة.

نبذة عن الكاتب

- حاصل على بكالوريوس إعلام، جامعة القاهـــرة.

- عضو نقابة الصحفيين، عضو الاتحاد العام للصحفيين العـــرب.

- عضو اتحاد الكتاب.. عضو اتحاد الأثريين المصريين.

- رئيس قسم المحافظات والتحقيقات والحوارات لمدة عامين في جريدة الدستور.. والآن مسئول قسم الرأي بنفـــس الجريدة منذ11 عـــــــامًا.

- له مقالات متنوعة بذات الجريدة وعدد من المواقع الإلكترونـية.

- مهتم بالشأن الأثري؛ لما يتعرض له من مخاطر تهدد بمحو ذاكرة الوطن وتاريخ وحضارة أجدادنا العظماء.

- قام بحملة كبيرة ضد فساد الآثار في جريدة الدستـــور وتلفزيون الدولة وبعض المواقع الإلكترونيـــة.

- اشترك كـ«ضيف استوديو ومداخلات تليفونية» في عـــــدد من البرامج التليفزيونية والإذاعية المصرية والعربية كـ«محلل سياسي ومعلق على الأخبـــار».

الخبرة في الكويت:

- سابقًا عضو جمعية الصحفيين الكويتية.

- عمل لمدة 13 عامًا كاتبًا صحفيًّا ومحرر أخبار وديسك: تحقيقات وحوارات بعدد من الجرائد والمجلات الكويتية منهـا: جريدة الأنباء.. جريدة

السياسة.. جريدة الرأي العام.. جريدة الهدف.. وجريدة المؤشر.. ثم مجلة النهضة.. ومجلة الهيئة العامة للتعليم التطبيقي.. ومجلة الهيئة العامة للشباب والرياضة.. مدير تحرير لـ: مجلة عالم المرأة.. ومجلة المجوهرات العالمية.

مؤلفاته:

- «سيناء بين رهبان اليونان.. وإخوان البنـــا».
- «شخصيات صنعت تاريخ مـــصر».
- «في رحاب الأنبياء.. عبر ومـــواعظ ».
- «كن حكيمًا مثلهـــــم».
- «المؤامرة الصهيو- عالمية على الآثار المصرية».
- «شهود على محو ذاكرة الوطـــــن».
- «استمرار نهب الآثار المصرية».
- «توت عنخ آمون.. والحقيقة الغائبة».
- و«رحَّال في مترو الأنفاق».
- صرخة وطن «رواية» .

تحت الطبع:

- «المؤامرة العالمية على الحضارة العربية».
- «نهب وتزييف الحضارة المصريـــة.. إلى متى؟!».
- «قلم ضد الفســـاد والخيانة».
- «خيانة الأوطـــــان».
- ورواية «رجل أقوى من الدولة».

فهرس الكتاب

الإهداء 3
المقدمة 5
الكفيف.. المفتح 7
المتطفل 9
طفلة المناديل 11
المتحرش 14
المتسولة 16
المتصابية 18
ابعد إيدك 24
الأولتراس 27
زغرودة حلوة 30
المسُتسحرة 32
إخوانجي وناصري 35
الحشري 40
الضمـــــــير 47
ثورجية وأزهري 50

روشتة أخلاق 56
النبيل 60
اللاقانون 65
مسرحيون بلا مسرح 71
الأطرش 76
العـــــراقي 78
الشاب الفتاة 82
لقمة عيش 85
أسرار الزهور 89
الملكـــــة 94
اليائس 98
المتُـــــظر 102
الشرطية 105
المُدخنة 107
الخيانة 110
القُضاة والصحفي 114
كوكب الشـــــرق 118
ديك البرابر 122
المجـــــــذوب 125

المُختل 128
مملكتهن 130
الأرملتـــــــان والمتحرش 133
آباء.. وأعداء 136
احـــــترام 139
ثرثرة هوانم 143
غرام أطفال 147
الضحية 148
الخاتمة 149
نبذة عن الكاتب 151
الفهرس 153